العراق
المورد
العدد رقم 4
1 أكتوبر 1973

الحماسة في شعر الشريف الرضي

بقلم
محمد جميل شلش
مدير الثقافة العام ـ وزارة الاعلام
بغداد

تمهيد :

تمثل نفس الشريف الرضي في قلقها ، وثورتها ، وتمزقها ، انعكاسا اصيلا لصورة عصر اضطربت فيه المقاييس والقيم الاجتماعية ، وعبثت به الفوضى السياسية ، وتملكته مشاعر الحيرة والرعب والخيبة ، حتى اصبح المخلصون ، والمتعلقون بالمثل ، يعيشون في صراع نفسي ، بين ما يؤمنون به ويتطلعون اليه ، وبين متطلبات العيش في واقع تردت فيه المثاليات ، وانهارت القيم ، وقلبت الموازين .

ويضع الرضيّ في اتون هذا الصراع عوامل كثيرة منها ـ عدا ما تقدم ـ ولادته في بيت علوي يسمو بنسبه الى الامام علي ، ويضخم في نفسه الشعور بعزة النسب وعلو المنزلة ، كما يثير فيها الطماح الى العلا ، بل المطالبة بالحق الشرعي المغتصب ، الذي هو الخلافة .

ثم يفتح الشريف عينيه على الحياة ، وهو في مقتبل العمر ، لتحل به نكبة توقظ في نفسه مشاعر الالم ، والحقد والثورة ، تلك هي اعتقال والده في سجن القلعة ، ومصادرة املاكه . وينظر الشريف الى من حوله فاذا الاصدقاء خصوم ، واذا الاقارب وشاة منافسون ، واذا البيت الرفيع الذي كان يظله ، والحياة التي كان يحياها ، تتحول بسرعة مذهلة الى واقع بائس مرير ، بعمق الجرح ، ويجسم المأساة ، ويضع الشاعر الشاب على طريق ازمة نفسية لاتكاد تفارقه في رحلة العمر ، ثم ينظر الى نسبه الضارب الى اكرم فرع ، ويستعيد ذكرى امجاد آبائه وبطولاتهم وكوارثهم ، ويعود الى واقعه نفسه ، فيثور فيه عصب بشعره بالعزة والانفة ، ويدعوه الى عظائم الامور ، فتداعبه احلام ، وتخالجه مطامح ، ولكنه يصطدم بالواقع الاليم ، والزمان المعاكس ، فينقل ثورته الساخطة الحزينة التي لم تحقق له الطموح المادي ، الى شعره . ثم يمزجها بانتفاخ ذاته مفتخرا بالنسب الشامخ معتزا بالكبرياء والانفة . ومن هنا طغى على شعره نفس من الفخر تغلب عليه الحماسة . وبلونه السخط والحزن والشكوى ، ويتجلى فيه الشريف شاعرا في صورة بطل ، نلمحه في اكثر اغراض شعره ثائرا متوثبا ، يستقل ظهور الجياد ، ويخوض الغمرات ، ويستصرخ فتيانه الشمت المثمين . حتى كأنه في حرب ضروس ، وحتى يمكننا القول ان قصائده في الكثير من اغراض المدح والرثاء والفخر والهجاء والشكوى ، وحتى الغزل ، لا تكاد تفارقها روح الحماس الذي يبثه الشاعر في تضاعيف قصائده ، ولا يستطيع الخلاص منه لانه اصبح جزءا من ازمة وجوده ، ينفثه بشكل عفوي كلما وجد الى ذلك سبيلا .

المقدمة الحماسية في شعر الرضي :

اعتاد الشعراء العرب القدامى ان يستهلوا قصائد المدح بالنسيب وذكر الاطلال تعبيرا عما في نفوسهم من حنين وشوق ، واستعادة لما في مخيلتهم من ذكريات ثم ترسخت هذه العادة عندهم على مر الزمن ، حتى اصبحت المقدمة الطللية تقليدا فنيا يمهد به الشاعر للتخلص الى غرضه الاصلي ثم حاول الخروج عليها اكثر من شاعر ، واستعاض عنها بعضهم بمقدمات اخرى[1] ثم توج الحملة عليها ابو نواس بروح من السخرية التي خرج بها

(1) القصائد الهاشميات : الكميت بن زيد ـ مطبعة الموسوعات ـ مصر ، ص ١٥ .

عن حدود الفن الى السخرية بالتراث والامة[2]، ولعله كان يصدر في ذلك عن نزعة شعوبية حاقدة وجدت لها متنفسا من خلال الدعوة الى التجديد . وجاء المتنبي فانحى باللائمة على الشعراء ، وسخر منهم في قوله[3] :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم
اكل فصيح قال شعرا متيم

ثم حاول الافلات من هذا التقليد غير مرة ، ولكنه لم يستطيع ان يتحرر منه كليا .

وولج الشريف الرضي عالم الشعر بكل حواسه ، وفي نفسه ثورة جبارة ، وسخط في وجه الزمان والناس ، منتفضا كالفارس الجريح وثابا الى المعالي ، مترسما خطى استاذه المتنبي في طماحه . وتحدبقه بعيني نسر الى عظائم الامور . تشغله هذا الانطلاق والتوثب عن النسيب ، وعن المقدمات الطللية في الكثير من قصائده ، واستعاض عن ذلك بالحديث عن فلسفته في الحياة والموت والاصدقاء وذم الدنيا ، والتأسي بمن مضى من الغابرين[4] . كما استهل البعض الآخر بالمقدمات الحماسية انسجاما مع ثورته التي لاتكاد تفارقه ، وتنفيسا عما كان يداخله من مشاعر ازاء بعض المواقف سواء أكان الغرض مدحا ، أم رثاء ، أم غير ذلك ، فلقد اعتاد في شعره أن يستهل قصائده بذكر الناقة والبيداء وصهوات الجياد والسيف والندم وقعقعة الاسنة ونخوة الشوس البهاليل ، ثم يعرج على التخلص الى الغرض الذي انشئت له القصيدة ، كما يفعل الشعراء في استهلال قصائدهم بالغزل والنسيب ، ولا تكاد تستعرض الصفحة او الصفحتين من ديوانه الاوتجد تلك الروح المتحمسة الوثابة ماثلة بين عينيك »[5] .

والمقدمة الحماسية في قصيدة الرضي ليست مقحمة عليها اقحاما ، وانما هي فلذة حية ، ومرآة صادقة ترتسم عليها صورة نفسه ، ونحن اذا تقصيناها في قصائد مختلفة من اطوار حياته ، نجدها تمثل الخط البياني لاحساس الشاعر ، وتتلون بمشاعر الالم ، او الفرحة الغامرة ، او الخيبة الممزوجة بالحقد تبعا للموقف ، وانسجاما مع نوع المعاناة .

(2) ديوان ابي نواس : دار صادر – بيروت : ص ١٨١ ، ص ٢٦٦ ، سنة ١٩٦٢ .
(3) ديوان المتنبي : ٦٩/٤ ، شرح البرقوقي – المكتبة التجارية
(4) ديوانه : ٢١/١ .
(5) الغري : محمد رضا آل كاشف الغطاء – السنة الاولى– العدد الثامن : ص ١٦٨ .

ففي سنة (٣٧٥ هـ) مدح الصاحب بن عباد ، واستهل قصيدته بمقدمة حماسية ، يصور فيها نفسه غلاما يفور شوقه وينجد ، ويعبر عن ابائه الذي يقيم الدهر ويقعده ، وعن صبره على الايام والشدائد ، وخوضه الليالي بحسام مجرد ، يلثمه بهمته وعزيمته ، مازجا ذلك كله بانه قلب يملوه الهم ، وتتصعد منه الزفرات ، مشترطا على ممدوحه الذي يخطب وده على البعد ، أن يكون « الحسام المهندا »[6] وهذا يعني ضمنيا ، دعوة من الشريف الى ان يكون الصاحب نصيره ومعينه . وقد مر علينا ان الرجلين تبادلا عواطف الود ، وان الصاحب اعجب بالشريف وبشعره ، فطلب انتساخ ديوانه ، وان الشريف هزه هذا الموقف فمدح الصاحب بن عباد مكاتبة[7] . وجدير بنا ان لا ننسى هنا رابطة المعتقد التي تشده الى ممدوحه ، ولعلها من جملة العوامل التي جعلت الرضي يهجم على قصيدته بمثل هذه المقدمة الحماسية التي يقول فيها[8] :

إباءٌ اقام الدهر عني واقعدا
وصبرٌ على الايام اناى وابعدا
وقلب تقاضاه الجوانح انة
اذا راح ملآنا من الهم اوغدا
اخوذ على أيدي المطامع بالنوى
نزاعا وما يزداد إلا تبعدا
اذا ركبت آماله ظهر نية
رأيت غلاما غائر الشوق منجدا
فتدي ومناع لا يمل كأنما
يرى الليل كورا والمجرة مقودا
يلثم عرنين الحسام بهمة
تكلفه خوض الليالي مجردا

اما رنة الحزن ، وانة القلب المفعم بالهم التي تمتزج بهذا الحماس ، فلعل مما يفسرها كون الرضي مازال في دور النكبة التي حلت به حين اقتيد والده الى سجن القلعة وصودرت املاكه[9] وهذه القصيدة من بواكير شعر الرضي ، وهي تذكرنا بابي الطيب المتنبي وابي تمام في اكثر من مكان[10] .

وفي سنة (٣٧٦ هـ) مدح ابا نصر سابور بن اردشير حين قدومه الى بغداد مع شرف الدولة ،

(6) ديوان الشريف : ١/١ البيت الثالث .
(7) ديوان الشريف : ٢٨٥/١ .
(8) نفس المصدر : ٢٨٠/١ .
(9) انظر نفس المصدر : ٢٩٤/١ ، ٣٠٥ .
(10) ديوان الشريف : ٢٨١/١ البيت (١٢) و ص ٢٨٢ البيت (٩) و ص ٢٨٣ .

وهذه السنة تمثل تحولا نفسيا في حياة الشريف ، وفي شعره ، فلقد زالت الغمة بزوال الشبح الرهيب ــ عضد الدولة ــ الذي كان السبب الاول في نكبته ، ثم اعقب ذلك اطلاق سراح والده ، ودخوله بغداد ، مما كان له أبعد الاثر في توجيه شعره ، وتفتيح قريحته باستقبال الهناء ، فاذا بمطلع مقدمته الحماسية فرحة غامرة يطلقها من اعماقه ، واذا به يتغنى بمطمحه في نبرة يملؤها التعجب ، ثم يرسل الحكمة على طريقة المتنبي ، ويدبج بها حماسته فتمتزجان بنشيد ثائر يقذف بنفسه من خلاله في الغارة الشعواء ، ويشب بعزمه مع حنين النيب ، يملؤه التحفز والترقب ويقول(١١) :

مايصنع السّيرُ بالجرد السراحيب
إن كان وعد الاماني غير مكذوب(١٢)
لله امر من الايام اطلبه
هيهات اطلب أمراً غير مطلوب
لا تصحب الدهر الا غير منتظر
فالهم يطرده قرع الظنابيب(١٣)
واقذف بنفسك في شعواء خابطة
كالسيل يعصف بالصوان واللوب(١٤)
إن حنت النيب شوقا وهي واقفة
فانّ عزمي مشتاق الى النيب
او صارت البيض في الاغماد آجنة
فانما الضرب منها غير مشروب(١٥)
متى اراني ودرعي غير محقبة
اجر رمحي ، وسيفي غير مقروب

وكانت مواقف الشريف امام والده تثير في نفسه كل معاني البطولة . فقد كان هذا الوالد ، فارسا شجاعا حكيما ، وزعيما يحظى بشعبية واسعة اهلته لان يكون رجل الساعة في العصر البويهي ، فخشيه الحكام ، وخطبوا وده ، ورأى فيه الشريف بديلا لحلمه في الزعامة والرياسة فاذا مدحه ثار وتحمس ، وكانه بذلك يعوض عن فراغ يعانيه ، ويسري عن ازمة نفسية حادة ، تجد لها متنفسا في وصفه لاحلام البطولة في شخصية ابيه الذي وجد فيه ذاته ، وعوض عما افتقده في الواقع المادي ، وهكذا فعل معه حين مدحه وهنأه بعيد الفطر سنة (٣٧٧ هـ) حيث استهل قصيدته بمقدمة حماسية ، تبدي فيها ، وارسل الحكمة ، وعرج على المتنبي وقال(١٦) :

لغام المطايا من رضابك اعذبُ
ونبت الفيافي منك اشهى واطيب(١٧)
ومالي عند البيض يا قلب حاجة
وعند القنا والخيل والليل مطلب
أحبُّ خليلي الصفيين صارم
واطيب داري الخباء المطنب
ذليل لريب الدهر من كان حاضراً
وحرب لدى الايام من يتغرب
ولي من ظهور الشدقميات مقعد
وفوق متون اللاحقيات مركب(١٨)
لثامي غبار الخيل في كل غارة
وثوبي العوالي والحديد المذرب(١٩)
اساكت بعض الناس والقول نافع
واغمد عن اشياء والضرب انجب
واطمعني في المزاني مغامر
جرئ على الاعداء والقلب قُلّب(٢٠)
وعندي مما خول الله سابح
واسمر عسال وابيض مقضب(٢١)

والمتتبع للشريف الرضي يلمس بوضوح انه «كان في شعره الاول يحاكي المتنبي في افكاره ، وصوره ، ونفسيته . وقلل من ذلك فيما بعد ، وان بقي خاضعا لفلسفته في الحياة والناس»(٢٢) .

ثم مدح الرضي والده بقصيدة اخرى وهنأه بعيد الفطر سنة ٣٨١ هـ واسهب فيها بمقدمة حماسية معبراً عن ثورته وسخطه وتعلقه باذيال المجد مازجا فيها بين الثورة والالم والشكوى من

---

(١١) ديوان الشريف : ٦١/١ .
(١٢) السراحيب : الطويلة . الواحد سرحوب .
(١٣) الظنابيب : الواحد ظنبوب : وهو عظم الساق ، ومعنى قرع الظنابيب : الجد في الامور . وقد الم في هذا البيت بقول المتنبي : لا تلق دهرك الا غير مكترث .
(١٤) الشعواء : الغارة المتفرقة . واللوب : العطش .
(١٥) آجنة من : اجن الماء ، اذا تغير لونه وطعمه .

(١٦) الديوان : ٧٩/١ دار صادر .
(١٧) اللغام : زبد افواه الابل .
(١٨) الشدقميات : النياق المنسوبة الى شدقم : فحل للنعمان بن المنذر . واللاحقيات : الافراس منسوبة الى لاحق وهو فرس عتيق .
(١٩) المذرب : المسموم . وقد الم بقول المتنبي :
يريد بك الحساد ما الله دافع
وسمر العوالي والحديد المذرب
٣٠٨/١ .
(٢٠) القلب : البصير بتقلب الامور .
(٢١) السابح : الفرس . المقضب : الشديد القطع .
(٢٢) الموسوعة العربية الميسرة : ص١٠٨٢ اشراف محمد شفيق غربال ــ القاهرة ــ دار القلم ــ ١٩٦٥ .

الزمان نافرا من موارد الذل مصورا نفسه على اشد ما يكون الرجل الابي المتعيف حيث يقول :ـ(٢٣)

حلفت بها صيد الرؤوس سوام
طوال الذرى يمددن كل زمام
بكل غلام حرم النوم همه
الى بلد نائي المزار حرام
لأستمطرن العز نفسا مريغة
ورود شلاء او ورود حمام(٢٤)
واستنزلن المجد من قذفاته
ولو كان اعلى يذبل وشمام(٢٥)
مللت مقامي غير شكوى خصاصة
واني لأمر ما امل مقامي
نزاعا عن الدار التي أنا عندها
كثير لبانات طويل غرام
صريع هموم يحسب الناس انني
لما اخذت مني ، صريع مدام
تواثب أيام نسرن خصائلي
مغالبة حتى عرقن عظامي(٢٦)
ودون ولوج الضيم في ذوابل
طوال بأيدي منجبين كرام
وان زماني يوم يحرق نابه
اعاذمه حتى يملد عظامي(٢٧)
وكم يستفز الذل قلب ابن همة
له امل نائي المدى مترام
يذاد عن الماء الذي فيه ريه
ويرمي الى الغدران مقلة ظامي
وتعرض غرات العلى وهو كانع
فيلحظها شزرا بعين قطامي(٢٨)
ولست براض عن منازل جمة
امر بها في الارض مر لمام
سوى منزل حصباء ارضي بجوه
نجوم ، واظلال الغمام خيامي
فذاك مكاني إن اقمت بمنزل
والا ففي ايدي الطلاب زمامي

(٢٣) الديوان : ١١٩/٢ ـ ١٢٠ صادر .
(٢٤) المريغة : الطالبة الورود .
(٢٥) القذفات : الواحدة قذفة . ما اشرف من رؤوس الجبال .
(٢٦) نسرن : من نسر البازي الطائر الطائر : نتف لحمه بمنسره .
(٢٧) حرق نابه : حكه حتى سمع له صرير . عاذمه : بادله اللوم او الشتيمة .
(٢٨) الكانع : المتشنج . القطامي : الصقر .

خفيف على ظهر الجواد تسرعي
ثقيل على هام الرجال قيامي

على ان المقدمة الحماسية في شعر الرضي لا تقتصر على ما استشهدنا به . فهي موجودة في اماكن اخرى استهل بها قصائد المدح(٢٩) . وهي موجودة كذلك في مقدمات قصائد في غير المدح ، كالرثاء مثلا(٣٠) . واذا كان قد استعاض بها في بعض قصائده عن المقدمة الطللية ، فهي ليست في شعره بديلا عنها ، اي انها لم تكن تقليداً اعتاده الشاعر ليفتتح بها بعض قصائده ، وانما كانت حاجة نفسية ، واحتباسا اصيلا لا يتصنعه ولكنه يعتلج في صدره ، يهجم على مشاعره فيقذفه عن طريق الشعر .

القصيدة الحماسية فى شعر الرضي :

وديوان الشريف الرضي لا يخلو من بعض القصائد التي تكاد تمثل وحدة متكاملة حماسيا . واغلبها وصف حربي ، تطغى عليه الحماسة ، لانه وصف نابع من اعماق نفس ثائرة ، تمتزج بالاحداث . ولكن هذا الوصف ، يبقى في اكثره وصفا حربيا حماسيا ، لا لمعارك معينة ، كما فعل ابو تمام والمتنبي ، وانما هو عند الرضي ، وصف حربي حماسي ، يقدم فيه الشاعر « النموذج » او « المثال » لجو المعركة بسلاحها وآلاتها وخيلها وفرسانها ، ثم يرسم فارسه « النموذج » ويعبر عن تصوره للثورة التي يتمناها ان تتحقق ، كما انه يصور نفسه بطلا ثائرا ، يخوض الغمرات ، ويصارع الاهوال ، ولعل من اروع قصائده في هذا الباب « الحائية » التي يعتبرها البعض « نشيد الفتوة العربية »(٣١) لما فيها من جذوة حماس متقد ، ومن رجولة ثائرة مصممة ، تقول : (٣٢)

نبهتهم مثل عوالي الرماح
الى الوغى قبل نموم الصباح
فوارس نالوا المنى بالقنا
وصافحوا اغراضهم بالصفاح
لغارة سامع انبائها
يغص منها بالزلال القراح

(٢٩) انظر ديوانه : ٥١/١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٢٦٩ و٢٩٩/٢ ، ٤٠٨ ، ٤١٩ .
(٣٠) نفس المصدر : ٨٧/١ و٩٠/١ .
(٣١) عبقرية الشريف الرضي ـ زكي مبارك : ١٨١/١ ط القاهرة ـ مطبعة حجازي .
(٣٢) ديوانه : ٢٥٤/١ دار صادر ـ بيروت .

ليس على مضرمها سبة
ولا على المجلب منها جناح

دونكم فابتدروا غنمها
دمى مباحات ومال مباح

فاننا في ارض اعدائنا
لانطأ العذراء الا سفاح

ويلاحظ الشريف الرضي في البيت ما قبل الاخير يحفز جنوده الى المطامع والمغانم الحربية المغرية « النساء ... والاموال » وهو في هذا المقام يعبر عن نزعة بدوية ، ويبدو متأثرا بالموروث الحماسي . فقد اتى على هذا المعنى غيره ممن سبقه من الشعراء العرب ، حيث عبروا عن هذا المعنى الذي يعتبر من مغانم الحرب ومغرياتها .

ويبدو الرضي في البيت الاخير :

فاننا في ارض اعدائنا
لانطأ العذراء الا سفاح

معبرا عن قوته ، وعن قوة جنوده ، وشدة فتكهم باعدائهم ، وتمكنهم من اغتصاب اعز ما لديهم .

ويذهب زكي مبارك الى ان الرضي في هذا البيت « يسجل اخلاق الجنود الغاوير ، والجنود الغاوير لا يعرفون المعقول من آداب الناس ... الخ »(٣٣)

وهو هنا ـ اعني زكي مبارك ـ يلتمس العذر للشريف الرضي ، من بشاعة هذه الاخلاق ، ووحشيتها ، على حد قوله . وفي نظري ان الرضي ليس بحاجة الى من يلتمس له العذر في هذا البيت من الشعر ، فهو في القرن الرابع الهجري ، الذي اطرح فيه الحشمة في الشعر ، وفي غير الشعر ، الكثير من ذوي السلطان ، والمراكز الاجتماعية والدينية(٣٤) ، حتى اصبحت امثال هذه المعاني مالوفة ، بل ومستساغة اذا ما قيست بغيرها من معاني الفحش والبذاءة في هذا القرن . فقد مر علينا اثناء الحديث عن الحياة الاجتماعية في هذا القرن ، ان التفنن في المجون والخلاعة ، ووصف الغلمان ... الخ كان نوعا من الترف الحضاري ، والتطرف الاجتماعي وقد تأثر الرضي قليلا بهذا النوع من الحياة حيث بدا على شعره شيء منها(٣٥) .

ولعلنا ، من هذه الزاوية يمكننا ان نفسر ذلك الروح الشفاف والقلب النابض بمشاعر الصبابة والهوى ، ونحن نقرأ غزله الرقيق ، في حجازياته التي اطلق فيها لعواطفه العنان ، وهو بعد هذا كله لاجناح عليه ، ولا حرج في ان ياتي على المعنى القديم :

فاننا في ارض اعدائنا
لانطأ العذراء الا سفاح

ولقد فات الدكتور زكي مبارك ان الرضي لا يسجل اخلاق جنوده تسجيلا اوتوماتيكيا تحكمه الصنعة والفن الشعري فقط ، وانما هو فوق هذا وذاك ، شاعر يحس ، وانسان يعبر عن شيء دفين يختلج في صدره ، ويبدولي هنا انه يصدر عن نزعة جنسية حبيسة ، وجدت لها متنفسا في هذا المقام ، فانطلقت من عقالها ثائرة هائجة ، لتمتزج بحماس الشاعر ، وثورته ، وهياجه . والشريف الرضي يعبر عن هذه النزعة الحبيسة ، التي تيدها مقامه الاجتماعي ، ومنزلته الدينية ، في نفس هذه القصيدة ، وعلى نحو آخر ، وهو ينحو منحى سياسيا ، يترقب الثورة التي ترتج بها بغداد . لتحرق بنارها اولئك الرجال الذين يشيبون العذارى في تصرفاتهم ، والذين بايديهم زمام الامور ، فيصف الواحد منهم بالجبن ، وبالميل الى حياة الدعة والخمول ، ومعانقة النساء فيقول :ـ(٣٦)

اذا رداح الروع عنت له
فر الى ضم الكعاب الرداح

ومن الواضح ان اضافة الصفة الى الموصوف في قوله « رداح الروع » انما هي في مظهرها الاعتيادي ، تشبيه بليغ ، ولكن ما هو بعدها النفسي ؟ وما هو مدلولها الحسي ؟ واية عفوية لا شعورية جعلت الشريف الرضي يشبه الحرب بالمراة الرداح ؟ يبدو لي مرة اخرى ، انها النزعة الجنسية التي تنطلق من اللاشعور ، لتتنفس من خلال هذه الكلمة الندية وامثالها(٣٧) . وكثيرا ما عرج الشريف الرضي على الكلمة الندية الغزلة ، وهو في مقام الحماس اللاهب ، وكثيرا ما مزج الحماسة بالغزل(٣٨) . وما تفسير ذلك الا هذا الاحتباس النفسي العاطفي الذي يسري عنه في مثل هذه المواقف .

ثم يستمر الرضي بهذه القصيدة ، في نفس حماسي ممتد ، محفزا نفسه ، راميا بهمته عبر

---

(٣٣) عبقرية الشريف الرضي ـ زكي مبارك : ١٨٢/١ ط) ـ القاهرة ـ مطبعة حجازي .
(٣٤) اليتيمة : ٢٣٦/٢ ، ٢٢٦/٢ .
(٣٥) اليتيمة ـ الثعالبي : ١٥٥/٢ . وديوان الشريف : ٢٧٣/١ .

(٣٦) ديوانه : ٢٥٥/١ دار صادر ـ بيروت .
(٣٧) ديوانه : ٢٤١/١ دار صادر ـ بيروت .
(٣٨) ديوانه : ٢٨٤/٢ دار صادر ـ بيروت .

المخاطر ، واصفا نفسه « بالغلام الوقاح » ، وكلمة (غلام) عند الشريف ، تعني بالضبط : الفتى الشجاع :(٣٩)

يا نفس من هم الى همة
فليس من عب الاذى مستراح
قد آن للقلب الذي كده
طول مناجاة المنى ان يراح
لابد ان اركبها صعبة
وقاحة تحت غلام وقاح
يجهدها او ينثني بالردى
دون الذي قدر او بالنجاح
الراح والراحة ذل الفتى
والعز في شرب ضريب اللقاح
في حيث لاحكم لغير القنا
ولا مطاع غير داعي الكفاح

وهو في هذه الابيات يعبر عن روح الفتوة ، ويسجل اخلاقها ، ويقارن بين حياة المدينة ، وما فيها من دعة ، وتبذل ، وذل ؛ وبين حياة البداوة ، وما فيها من خشونة وصرامة وعز ، عارضا ذلك في الصورة النقدية الاجتماعية البارعة :

الراح والراحة ذل الفتى
والعز في شرب ضريب اللقاح

والقصيدة ، من اولها الى آخرها ، تكاد تكون وحدة حماسية ، تتعانق ابياتها ، وتتدفق من خلال هذا البحر « السريع » ، وهذه القافية الساكنة ، التي اضفت عليها روحا من الحداء ، والتوثب ، والنزوان الذي يتلاءم مع ارتكاض الخيل ، وسرعة حركتها . وهي ، على ما يتخللها من وصف على طريقة المتنبي ، تلمح الشريف الرضي من خلالها ، بطلا يترقب الثورة المدمرة التي ترتج بها الزوراء ، وتتزلزل منها الارض ، وتسيل الدماء . ويهرب الناس ، متلفتين ، مذعورين . على ان هذه البطولة عند الرضي ، انما هي بطولة شعورية ، اكثر منها بطولة مادية ، اعني انها احلام بطولة ، لان الشاعر الشريف ، لم يثبت عنه التاريخ انه كان فارسا يخوض المعارك . وسنتوسع في هذا القول عند الحديث عن احلام اليقظة في شعره الحماسي . ولنستمع اليه ، ونتصوره وهو يتوقع الثورة حيث يقول :ــ

متى ارى الزوراء مرتجة
تمطر بالبيض الظبي او تراح(٤٠)
يصبح فيها الموت عن السن
من العوالي والمواضي فصاح
بكل روعاء عطينية
يحتثها اروع شاكي السلاح(٤١)
كانما ينظر من ظلها
نعامة زيافة بالجناح
متى ارى الارض وقد زلزلت
بعارض اغبر دامي النواح
متى ارى الناس وقد صبحوا
اوائل اليوم بطعن صراح
يلتفت الهارب من عطفه
مروعا يرقب وقع الجراح
متى ارى البيض وقد امطرت
سيل دم يغلب سيل البطاح

واذا كان واقع الحياة السياسية وما رافقه من صراع على السلطة ، تسفك فيه الدماء ، وتكثر الفتن ، ويسمل الخلفاء ، ويخلعون ، ويقتلون ، او ينصبون على عرش الخلافة وليس لهم غير الاسم ــ اذا كان هذا كله ، وغير هذا ، قد الهب حس الرضي ، والهمه صدق المعاناة ، وحرارة التجربة ، فتحمس ، وثار على الاوضاع المزرية المؤلمة ، واتحفنا باناشيد الفتوة والبطولة ، فانه يطل علينا في مجال آخر ، بقصائد حماسية اخرى متكاملة ، ولكن دوافعها قد تكون غير سياسية ، فربما اثار غضبه حافز نفسي محض ، قد يكون سببا في هياجه ، من امثال ما كان يتعرض له من اذى ، او ما يسمعه من كلام جارح . وقد عانى الرضي ، وخصوصا في طور الفمة من حياته ، الكثير من امثال هذه المواقف ، وتوالت عليه احداث ومحن ، الهبت مشاعره ، وخلقت منه انسانا شديد الحس ، سريع الغضب ، وقد كان في طبعه انفة وكبرياء ، ونفور عن مواطن الهوان والذل ، فاذا شعر بالاذى يأتيه متعمدا ، لجأ الى العتاب ، فان لم يغن اعقبه بثورة لاهبة ، كما فعل في « بائيته » . وهي قصيدة حماسية متكاملة ، دافعها نفور من الاذى ، وثورة عليه ، وقد مزجها الشريف ، بالوصف الحربي ، وضمنها روائع الحكمة ، شأن استاذه

---

(٣٩) ديوانه : ٢٥٤/١ دار صادر ــ بيروت .

(٤٠) ديوانه : ٢٥٥/١ دار صادر ــ بيروت .

(٤١) عطينية : المنتفخة البطن من اكل شجر العطين .

المتنبي ، ولكنه لم يبلغ مبلغه فيها ، ثم نفث في ابياتها ما تجيش به همومه ، وحذر واوعد وقال :ـ(٤٢)

الى كم لا تلين على العتاب
وانت اصم عن رد الجواب
حذارك ان تغالبني غلابا
فاني لا ادر على الغضاب(٤٣)
وانك ان اقمت على اذاتي
فتحت الى انتصاري كل باب
واحلم ثم يدركني إبائي
وكم يبقى القرين على الجذاب
اذا وليتني ظفرا ونابا
فدونك فاخش من ظفري ونابي
فان حمية القرناء تطفي
فتثلم جانب النسب القراب
نفر الى الشراب اذا غصصنا
فكيف اذا غصصنا بالشراب ؟

ويبدو ان الشريف الرضي في البيتين الاخيرين يخاطب قريبا له ، وان الاذاة تاتيه من هذا القريب ، والرضي هنا ، يعطينا صورة مصغرة مما آلت اليه الحياة الاجتماعية في عصره ، في جانب من جوانبها الخلقية ، واعني بذلك انه يرسم لنا صورة من صور ايام محنته حين سجن ابوه ، وحين صودرت املاكه فتخلى عنه الاصدقاء ، وناصبه العداوة بعض القرباء . على انه ، وهو في غمرة الحماس الذي يصور فيه اباءه وقوته ، وصبره ، لا ينسى ان يعرج على قومه ، موكدا على الحس الجماعي الذي لا يكاد يفارقه في حماسته ، وفي فخره ، وفي تمجده بقوته ، فهو يخاطب من يناصبه العداء ويقول :

ورب ركائب من نحو ارضي
تخب اليك بالعجب العجاب
وتظهر اسرة من سر قومي
تمد الى انتظاري بالرقاب(٤٤)

ويمتد بالشريف الرضي هذا الحس الجماعي ، فياتي على ذكر الوقائع والاحداث التاريخية وايام العرب المشهورة(٤٥) في اماكن اخرى من شعره وهو يخرج بهذا من دائرة قومه في النسب ، الى دائرة اشمل واوسع ، تلك هي دائرة الحس الجماعي العربي . والشريف يعبر هنا عن نزعته العربية ، ويعطي لشعره قيمة تاريخية ايضا ، ويدير الكلام من مخاطبة الفرد الذي يناصبه العداء ، الى مخاطبة الجماعة فيقول :

تذكركم بذي قار طعانا
وما جر القنا يوم الكلاب
عليها كل ابلج من قريش
لبيق بالطعان وبالضراب

اما النزعة العربية التي نجدها في مواطن كثيرة من شعر الشريف والتي تتجلبب تارة بثوب البداوة ، وتبرز تارة اخرى صريحة قحة(٤٦) فلعل من اسبابها نسبه العالي ، ومقامه الاجتماعي الرفيع ، وشعوره العميق بالتفوق وامتلاك القدرات ، ثم طغيان الروح الفارسي على الحياة والادب .

والشريف الرضي عربي اصيل . وتاريخه يضعه في الذروة من المجد والعزة والبطولة والشرف والاباء ، في عصر ضاعت فيه القيم ، وساد فيه من لا مجد يرفعه ، ولا مكانة اجتماعية تعليه ، ولا ملكات شخصية تعزز منزلته ، فتلفت الشاعر الى من حوله ، ووجد نفسه ضائعا(٤٧) او كالضائع في عصره : قتالم ، وثار ، وابى . وطمح الا ان المثبطات القاهرة وقفت حائلا دون تحقيق آماله . ولقد كانت كل هذه العوامل مدعاة لاثارة روح عربية اسلامية عنده ، وعند الكثيرين من ادباء القرن الرابع الهجري بحيث اتخذت طابعا خاصا ، ومثلت مدرسة فكرية ، واسلوبية واعية ، لم تصدر عن انفعال ، وقد تمثلت هذه النزعة في شعر الرضي(٤٨) ، فكان عربيا ، قوميا ثائرا على قيم عصره الفكرية ، والسياسية ، والخلقية .

وفي هذه القصيدة التي بين ايدينا ، يصل الشريف الرضي الى ذروة الغضب والثورة ، والترقب لليوم الحاسم ، حيث يذيق الاعداء سم عقابه ، وحيث ينصب قدوره فوق هاماتهم ، ويمزج شرابه بدمائهم ، ويركز رماحه في قلوبهم ، ويضرب قبابه في ديارهم : فاذا هلك نحسبه جراة ، واذا ملك فحسبه غنى في مطلبه ، وكل اولئك صور لاحلام يقظان ، مبعثها حافز النفور من الاذى ،

(٤٢) ديوانه : ١٩٠/١ دار صادر .
(٤٣) لا ادر على الغضاب : لاكثر غيراني على من يغاضبني .
(٤٤) سر قومي : محض نسبهم .
(٤٥) انظر : الديوان ٣٠٨/١ البيت : (٥ ، ٧ ، ١٠) و : ٣٣) البيت : ١١ و : ١٤٩ البيت : ٩ و : ٢٥٢ البيت : (٣ ، ٤ ، ٥) .

(٤٦) ديوانه : ٥٢٥/١ ، ١٠٦/١ ، ٢٢٥/١ ، ٤٢١/٢–٤٢٢ .
(٤٧) ديوانه : ٨٠/١ دار صادر .
(٤٨) الادب في ظل بني بويه ـ الدكتور محمود غناوي : ص ١٦٠ – ١٦٣ .

والثورة على الضيم ، يتنفس فيها الشاعر عن الم دفين ، ويعبر خلالها عن امل يتمنى تحقيقه ويقول :

وعندي للعدى لابد يوم
يذيقهم السم من عتابي
فانصب فوق هامهم قدوري
وامزج من دمائهم شرابي
واركز في قلوبهم رماحي
واضرب في ديارهم قبابي
فان اهلك فعن قدر جري
وان املك فقد اغنى طلابي

ولعل من اجمل قصائد الرضي الحماسية المتكاملة ، قصيدته التي يبدأها بالحديث عن الحرب ، ويمزج ذلك بالفخر الصارخ ، متحدثا عن علو همته ، ومضاء عزمه ، ونفوره من مواطن الذل . يقول الرضي في هذه القصيدة :(٤٩)

ان الحرب معطوف علي ضجاجها
وتلك جيادي قبّها وعجاجها
ويأنف قلبي ان يرد رماحها
اذا اشتبكت خرصانها وزجاجها
فمابال بغداد اذا اشتقت رحلة
تشبث بي نبطها ونجاجها
كأن لها دينا علي ، وانني
سيطلبها سيفي وديني خراجها
أبغداد مالي فيك نهلة شارب
من العيش الا والخطوب مزاجها
ولو انني ارضى بأدنى معيشة
لارضت مناي عند أهليك حاجها
ولكنني جار على حكم همة
كثير عن الطبع الذليل انعراجها
يخيل لي ان الاماني غياهب
ولا ينجلي الا وعزمي سراجها

والرضي في هذه القصيدة ، يعبر عن اصطراع عالمي الحضارة والبداوة في نفسه ، كما يعبر عن ثورته على المدينة(٥٠) بسبب ما يلاقيه من خطوب، وعن تمرده على الواقع الاجتماعي الذي كان يعيش فيه ، حيث هزته احداثه وتناقضاته فانتفض كالجريح ، ونظر الى خصومه بعين يلتمع فيها الشرر، وظل الى فترة طويلة من حياته قوي العزم ، جريء القلب ، لم يتخاذل امام الاحداث والنكبات .

على ان ما يقدمه الرضي في هذه القصيدة ، انما هو محض صورة فنية لشاعر مأزوم ، يتصور الثورة ، ويتغنى بالحرب ، وينهل من الموروث الحماسي العربي ؛(٥١) ولا يأتينا بجديد يختلف فيه عمن سبقه من الشعراء المتحمسين الفرسان لولا هذه النبرة الحادة الثائرة التي تطبع شعره ، وتعطيه روحا من القوة ، وعنصرا من التشخيص يميزه عن غيره . والخلاصة ، ان ديوان الرضي مليء بالشعر الحماسي ، وقد وجدناه في الكثير من مقدمات قصائده ، مستعيضا به عن المقدمات الطللية ، ومنسجما مع الموقف النفسي الذي هو فيه . وسنجده مبثوثا كذلك ، في اكثر قصائده ، وفي تضاعيفها ، وقد وجدنا اضافة الى هذا وذاك، ان له بعض القصائد الحماسية المتكاملة ؛(٥٢) وهي قصائد يتخللها الوصف الحربي الذي يمتزج بحماس الشاعر ، وهو في مجمله وصف حربي عام ، واعني بذلك انه وصف للحرب المثالية ، لا لحرب بعينها . وقد وجدنا ان القصيدة الحماسية عند الشريف الرضي ، دافعها على الاغلب تجربة شعورية محضة، وعلى الاقل عوامل خارجية مادية تكون سببا في ثورته وهياجه ، كما لاحظنا ان الرضي يتأثر بالموروث الحماسي العربي مما حفظه ، وعصمه وهو كثيرا ما يستطرد في حماسته الذاتية ، معرجا منها على الفخر التقليدي ، وهو فخر اما بنسبه ، واما بقومه ، ويبدو انه كثيرا ما يرى نفسه من خلال نسبه وقومه ، على العكس من المتنبي الذي كان يرى نفسه من خلال نفسه(٥٣) . اما صورة الرضي في قصيدته الحماسية ، فهي صورة الفارس النموذج ، ولعل صورة فتيانه الشجعان ، هي الاخرى صورة لما يتمناه في الواقع المادي .

الحماسة في أغراض شعر الرضي

مر علينا في بداية هذا الفصل ، أن الحماسة في شعر الشريف الرضي كانت كثيرا ما تجيء في مقدمات قصائده ، منسجمة مع موقفه النفسي ، وملائمة لغرض القصيدة .

(٤٩) ديوانه : ٢٢٤/١ دار صادر – بيروت .
(٥٠) الشريف الرضي – احسان عباس : ص ٢٢٧ وديوانه : ٢٦٠/٢ .

(٥١) ينظر في البيت السادس الى قول امرىء القيس :
ولو انني ارضى بأدنى معيشة
كفاني – ولم اطلب – قليل من المال
(٥٢) ديوانه : ٥٣٢/٢ ، ٨٧/١ دار صادر .
(٥٣) الشريف الرضي – احسان عباس : ص١٦٨ .

كما مر علينا ايضا ، ان ديوانه لم يخل من القصائد الحماسية المتكاملة ، التي كانت تتدفق على لسانه معبرا فيها عن هذه الروح التي لاتكاد تفارقه ، بسبب الظروف الموضوعية والنفسية التي تواكبت على تكوينه .

وقد المعنا الى ان روح الحماسة في اكثر قصائده ، مبثوثة في تضاعيفها ، طاغية عليها ، في مدحه ، ورثائه ، وفخره ، وهجائه ، وشكواه ، وغزله ، ووصفه .

والمعروف ان الرضي شهد الصراع الدموي الذي اضطرب به القرن الرابع الهجري . واتصل بالكثير من احداثه ، في علاقاته مع ملوكه وخلفائه وزعمائه ، وفي مناصبه واسفاره ، بل اكتوى بناره وهو في ريعان صباه ، وكان هذا العصر القلق المضطرب ، مع كل ما فيه من حضارة ، ومدنية ، وشعوبية ، وتحلل ، وفسق ، وخمرة ، عاملا فعالا في ثورته ، وحزنه ، وألمه ، وقلقه ، وانتفاضته على واقع مرير أهمله ، بل تنكر له ، وهو الذي يشعر في قرارة نفسه ، انه يحمل كل المؤهلات التي تمهد له سبل المجد والزعامة ، ولكنه يصطدم بصخرة هذا الواقع الذي اضطربت فيه المقاييس والقيم ، فيثور عليه ، ويصرخ في وجهه:(٥٤)

أنا السيف الا انني في معاشر
اری كل سيف عندهم لايجرب .

ولعل في معنى هذا البيت سر ازمته النفسية التي كانت عاملا قويا من عوامل ابداعه الشعري ، ولعله ايضا ، صورة للتعبير عن آلام وآمال طبقته التي سحقتها عجلة الحياة في القرن الرابع الهجري.

وفي الحقيقة « ان شعر الشريف الرضي في اكثر اغراضه ، كان يمثل ظاهرة ادبية قائمة بذاتها ، تهدف الى تصوير ما كان يختلج في نفوس طبقة معينة من آلام وآمال ، واعني بهذه الطبقة ، اولئك العرب المغلوبين على امرهم في ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، فقد كانوا ينظرون الى الحاضر وما اصابهم فيه على يد الاعاجم من فشل واخفاق فيجزعون ويألمون ، وكانوا يتطلعون الى المستقبل ، فتداعبهم الاحلام بالظفر والنجاح ، فيطمعون ويأملون »(٥٥) .

ويبدو ان الشريف الرضي ، كان يحمل متناقضات الحاضرة ، في هذا القرن ، كما كان يحمل

---

(٥٤) ديوان الرضي : ٨٠/١ دار صادر – بيروت .
(٥٥) الادب في ظل بني بويه – الدكتور محمود غناوي الزهيري : ص ١٦٤ – مطبعة الامانة .

– بسببها – رواسب بدوية قحة ، ولكي نقف على اسرار حماسته ، ونفسرها تفسيرا موضوعيا ، لابد لنا من ان نتدرج معه عبر الاحداث والوقائع ، وان نسير على خطين متوازيين في حياته وشعره ، مستنيرين بتطوره عبر هذه الاحداث ، مستعينين بما خلفته من آثار على مرآة نفسه وشعره .

ولعل خيرما يعيننا على ذلك ، قصائده في المدح والرثاء ، بشكل خاص ، فهي على الرغم من كثرتها ، توضح اكثر من سواها ، صلة الشاعر بعصره ، كما تعبر عن علاقاته ، وآماله ، وفرحه ، وحزنه ، وثورته ، وهدوئه ، فقد استغلها الشريف الرضي استغلالا سياسيا ومذهبيا ليعبر عن مواقفه في رحلة عمره ، وعما يشعر به ازاء الاحداث في بغداد وغيرها .

فقصائد مدحه تبلغ الثمين قصيدة ،وهو يتحمس في اغلبها ، في مقدماتها ، وفي ثناياها .

وقصائد الرثاء تبلغ الثمانين . وتأتي بعد قصائد المدح ، حيث يبدو فيها اقل حماسا لانه يغلب عليه البكاء . ويشبه احيانا انفطرام صدر بالثورة على عصره واهل عصره ، ويجره الى نوع من النواح الذي يشبه الندب الجنائزي ، وقد سماه بعض النقاد القدامى « النائحة الثكلى »(٥٦) لهذا السبب .

وسأحاول الحديث عن حماسة الشريف الرضي من هذه الزاوية ، مارا بالاحداث الكبرى في حياته ، مكتفيا بالنماذج التي تفي بالغرض ، وتعطي صورة عن حياته وشعره الحماسي . وأول ما يطالعنا في هذا الباب « داليته » (المشهورة التي نظمها وسنه فوق العشر بقليل)(٥٧) . فهي اولى قصائده التي توجع فيها لوالده ، وهي قصيدة طويلة عدة ابياتها ثمانية وسبعون بيتا ، ومطلعها :

نصافي المعالي والزمان معاند
وننهض بالآمال والجد قاعد

فقد نظمها في مدح والده عندما قبض عليه المطهر وزير عضد الدولة وحبسه في القلعة بفارس. ومعه محمد بن عمر العلوي ، والقاضي ابن معروف. وعيره بقولته المشهورة « كم تدل علينا بالعظام النخرة » وقد مزج الشريف شكواه في هذه القصيدة بالسخط والثورة وقال :

---

(٥٦) الوافي بالوفيات : صلاح الدين الصفدي ؟ ٢٧٤/٢ ، طبعة ريتر .
(٥٧) ديوان الرضي : ٣٠٧/١ – دار صادر . وزكي مبارك – عبقرية الشريف الرضي : ١٠٩/١ .

يقر بعيني ان ارى ارض بابل
تخوض مغانيها الجياد المذاود
واسحب فيها برد جذلان شامت
اذا شاء غنته الرفاق البوارد

اما المطير ، فطاغ باغ ، يعيّر والده بالعظام النخرة المنزهة ، والشريف تثيره هذه الكلمات ، وتظل راسية في اعماق شعوره ، ثم تظهر في مناسبة اخرى ، وعلى نحو آخر(٥٨) لانها كانت طعنة نجلاء في صميم الشريف الشاعر الشاب المنكوب ، يقول الشريف في المطير هذا :

وطاغ يعير البغي غرب لسانه
وليس له من جانب الدين ذائد(٥٩)
شننت عليه الحق حتى رددته
صموتا ، وفي انيابه القول راقد
الى يعير الله عضدا وناصرا
وناصرك الرحمن والمجد عاضد
يعير ربّ الخير بالي عظامه
الا نزهت تلك العظام البوائد(٦٠)
ولكن راى سبّ النبي غنيمة
وما حوله الا مريب وجاحد
ولو كان بين الفاطميين رفرفت
عليه العوالي والظبى والسواعد

ولقد مدح الرضي اباه باكثر من اربعين قصيدة ، توجع له في الطائفة الاولى منها ، وهناه بالخلاص ورد املاكه اليه في الطائفة الثانية ، كما هناه بالاعياد في الطائفة الثالثة منها ، ودخل عليه كما يدخل على الملوك(٦١) ، وسجل خلال هذه الاشعار تاريخ ابيه الحافل كما انفعل وتحمس ازاء الكثير من الاحداث وهو في معرض المدح .

وكما كانت مواقف الرضي امام والده تثير في نفسه الحماسة والثورة كما اسلفت ، فانه تحمس وثار في مواقف اخرى ، وكثيرا ما « كانت مدائحه شاهدا على اشتباكه في المعارك السياسية التي كانت تثور في فارس والعراق »(٦٢) .

وفي مناسبة اخرى سنة (٣٧٤ هـ) كتب الرضي قصيدة في مدح والده ايضا ، وذم الزمان والخطوب ، وتحدث عن نزوعه الى طلب العلى وهو في طور النكبة ، وعن نفوره من مراطن الذل وقال :

رب طلاب اتلع رمته
وحاجة عالية الهادي
معتجرا بالليل أحدو به
بزلاء تستولي على الحادي
لا ارد الماء ولو انني
ضجيع اسدام واعداد(٦٣)

والمهم في هذه القصيدة ، ما اورده فيها من ابيات تنم عن ثورة وتمرد على واقعه في بغداد ، وعن شعور بالغربة فيها :

ما الرزق بالكرخ مقيم ولا
طوق العلى في جيد بغداد

انحلني فيها طلاب العلى
وذاك فخري عند انـدادي
لو كان دائي من غرام الهوى
جزعت من ابصار عوادي

وفي قصيدة اخرى في نفس العام ، مدح الخليفة الطائع لله ، ولم ينس أن يعرج على فخره بابيه ، وذمه لبعض اعدائه ، وقد استغل الموقف ليتحدث عن ثورة نفسه وجيشان حزنه ، وما الحقه به الدهر من الهم والكدر ، مصطنعا « كاملية » جرير :

وهذا الدهر خفض من عرامي
ورنق من غبوقي واصطباحي
وقد كان الملام يطيف مني
بمنجذب العنان الى الجماح
تؤول النائبات الى مرادي
ويعطيني الزمان على اقتراحي

ثم تاخذه ثورة الحماس ، فيستغرق في حلم اليقظة ، ويصور نفسه فرسا يطل على غريمه من عل ، بطعنه نجلاء ، مندمجا في حلمه ، هاجما على خصمه في صورة البطل الذي الفناه في اكثر قصائده حيث يقول : (٦٤)

---

(٥٨) ديوان الرضي : ٤٩/١ دار صادر .
(٥٩) في الديوان « عن » والصحيح ما اثبتناه .
(٦٠) في الديوان ، « تعير » والصواب : « يعير » .
(٦١) عبقرية الشريف الرضي — زكي مبارك ١٠٦/١ .
(٦٢) نفس المرجع : ١٥٤/١ وانظر ديوانه : ٥٥٠/٢ .

(٦٣) الاسدام ، الواحد سدم : الهم مع الندم والغيظ مع الحزن والاعداد ، الواحد عد : الماء الجاري لا ينقطع .
(٦٤) ديوان الرضي : ٢٤٠/١ — ٢٤٢ صادر .

ومدرعٍ سموت لـه مقـدا
وقد غرّضَ القارعَ بالرماح

بنافـذةٍ تمطـق عـن نجيـع
تمطق شـارب القـر الصراح

واخرى في الضلوع لها هـدير
هـدير الفحـل قرب للقـاح

ومما لاشك فيه ان هذه صورة من احـلام اليقظة ، يخفف فيها الرضي من عبئـه النفسي ؛ وآلامه المكظومه ؛ ومن المعروف لدي علماء النفس ان « ابداع الفنان يرجع في مصدره الى الرغبـة في التخفف من عبء خاص ، والى محاولـة تحقيق رغبات في عالم الخيال ، لم تشبع في عالم الواقع »(٦٥)

وقد اشرنا في غير هذا المكان الى الصـورة الحماسية في البيت الاخير ، فهي بالاضافة الى كونها صورة بدوية قحة الا انها لا تخلو من نزوع جنسي عفوي ، يمتزج بها ، ويغذيها ، ويثيرها عنيفة حادة .

ويستغل الرضي قصيدة المدح ، فيتحمس لاسباب هي غير ما ذكرنا ، وقد ثار هنا ، وتحمس ، لان هناك من يريـد ضيمه ، والوقوف في طريـق طماحه ، وخاطب شخصا مايزال غامضا ، وسماه ؛ وهدر في وجهه :

ابا هـرمٍ اتحذهـا إنـني
بأيّ يـدٍ تطامـن من طماحي

لحقت ابـي نزاعـا في المعالي
وعرقـا في الشـجاعة والسماح

وطبقت العراق لنـا قبـاب
نظللهـا باطـراف الرمـاح

وهكذا يعود الشريف الرضي ، الى اصلـه ونسبه ، ليرى نفسـه من خلال ذلك النسب ، كما يتكيء في بيته الاخير على هذا المعنى المـكرور في الموروث الحماسي العربي القـديم :

وطـبقت العـراق لنا قباب
نظللهـا باطـراف الرمـاح

ويظهر ان ابا هرم هذا ، كان رجلا يغيظـه لسبب لم تكشفه سيرة الرضي ولا شعره ، وقـد ذكره في موضع آخر هو اشبه بالهجـاء ، ووقف امامه متحمسـا ثائرا :ـ(٦٦)

(٦٥) التفسير النفسي للادب ـ عزالدين اسماعيل : ص٩ .
(٦٦) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٢٥٠/٢ .

ابا هـرمٍ انحهـا إنـني
سـأمطرها عـن قليلٍ دمـا

ولا تشـمخن بانـف الإبـي
فأولـى لانفـك ان يرغمـا

وهـذا النوع من العـداء كان يثير الرضي ويغيضه ، وينطقه بشعر ثائر عنيف وهو لذلك يفسر جانبا من شعره الحماسي(٦٧) .

وفي سنة ٣٧٤ ايضا ، وهو عام النكبة بالنسبة للرضي ، حيث ان اباه ما يزال سجينا ، في هـذه السنة اجتمع بابيه(٦٨) ، ثم هزه الموقف ، فمدحه: وعرّض باعدائه ممن خذاوه ونافسـوه ، وحـذر مهـددا :

حذار بني العنقاء مـن متطاولٍ
الى الحرب ، لايخشى جناية جانٍ

وقـال متوعـدا :

فهذا وعيد ، سطوتي من ورائـه
وعنوان ناري أن يبين دخانـي

فلا يحسب الاعداء كيدي غنيمة
ولا انني في الشـر غـير معـان

ثم تأخذه النشوة ، فينتقل الى مدح ابيـه ، ولكنه يبقى في ذروة حماسته ، مندمجاً مع الموقف، هادرا في نفس عال ، فيه طرب ، وفيه اعتداد ؛ وفيه ثورة :

وابيض من عليـا معـد كأنمـا
تلاقـى عـلى عرنينـه القمـران

اذا رمت طعناً بالقريض حميتـه
وان رمت طعنـاً بالرماح حماني

يجـود اذا ضنَّ الجواد بنفسـه
ويمضي اذا مازلـت القـدمان

والرضي يعارض هنا « نونية المتنبي »(٦٩) ويذكر في البيت الاخير يقول الشـاعر :

تجود بالنفس اذ أنت الضنين بها
والجود بالنفس اقصى غاية الجود(٧٠)

ثم يستمر في مدحه لأبيه ، في نفس ملحمي ، ونبرة متوثبة ، نلمح الرضي من خلالها مجلجلا وكأنه

(٦٧) المصدر نفسه : ٢١٢/١ ، ٤٠٤ و ١٨١/٢ .
(٦٨) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٩٥/٢ .
(٦٩) ديوان المتنبي ـ شرح البرقوقي : ٢٧٢/٤ .
(٧٠) ديوان مسلم بن الوليد ؟ تحقيق سامي الدهان ؟ ص١٢٤ .

وجد في شخص ابيه متنفسا لثورة يكظمها ، وحماس يعتلج في صدره :

ابا أحمد انت الشجاع ، وانما
تجر العوالي عزمة لطعان
ولما غزى القوون فيك وفرجت
ضلوع على الغل القديم حوانى
نجوت عن الغماء وهي قريبة
نجاء الثريا من يد الدبران
وغيرك تغشى الذل من نجواته
وطامن للايام شخص مهان

حتى اذا فرغ من زفرة الحماس هذه ، عاد الى نفسه ، وهو يخاطب اباه ، تغمره النشوة ، وهو ينشد :

الشتو على شيب ، وعزك ناصري
وباعي طويل من وراء سناني
اذا تعداني الضيف في كل ليلة
ركبت باعجز البيوت جفاني

واذا كانت مدائح الرضي لوالده ، تثير في نفسه صور البطولة والحماس ، لانه يجد في ذات والده البديل الذي افتقده في واقعه المادي ، فان مدحه له في فترة نكبته ، كثيرا ما اثار في نفسه لواعج الألم الدفين ، والفورات العاطفية الحزينة .

قال الرضي ، من قصيدة سنة (٣٧٥ هـ) في معرض مدحه لوالده :(٧١)

ابكي على الايام ، وهي ضواحك
في وجه غيري ، وهو فيها حائر
لو شاب طرف شاب اسود ناظري
من طول ما انا في الحوادث ناظر
او ان هذي الشمس تصبغ لمة
صبغت شواتي طول ما انا حاسر

ففي هذه الابيات صورة عنيفة لاعوام بؤسه ، تعبر تعبيرا صادقا عن الم ثائر ، واحتماس نفسي داخلي ، واهتزاز عاطفي جامح ، تطل علينا من خلاله صورة الشريف الرضي ، المتألم ، الصابر ، الجلد : المحتمل للمصائب ، ولا فرق في ذلك في ان يكون في معركة يجالد ويصبر ، او في مثل هذه المعاناة الشعورية ، ولعله يشبه في هذا ما اورده التبريزي(٧٢) لعبدالصمد بن المعذل ، والمرزوقي(٧٣) لمؤرج السدوسي .

ثم تحل سنة (٣٧٦ هـ) وأبوه طليق ، والخليفة الطائع لله يرعاه ويستقبله ، وظل الشيخ الرهيب ــ عضد الدولة ــ بنحسر ، فتزول الغمة ، واذا بقصيدة الرضي في الطائع لله ، تبدأ بنشوة ، او سلوة كما يسميها ، تذهب بكل غرام ، وتزيل حر الجوي ، وتنعش آمال الشاعر باستقبال العز ، واباء الذل فيقول :(٧٤)

نفض الصبابة خاطري وجوانحي
وابى المذلة منزلي ومقامي

ويقول :

هيهات يخفضني الزمان ، وانما
بيني وبين الذل حد حسامي

ويمدحه ويهنئه بعيد الفطر سنة (٣٧٧ هـ) بقصيدة مطلعها (٧٥):

الى كم الطرف بالبيداء معقود
وكم تشكى سواي الضمّر القود

معارضا المتنبي ، محاكيا اياه ، في لغته ، والفاظه ، ومعانيه(٧٦) ، وقد لازمته هذه الاتباعية في بواكير حياته ثم تخلص منها بعد ان اكتملت شخصيته الشعرية(٧٧) .

واستغرق في حلم يقظته ، متحمسا ، مصورا نفسه يقطع الفيافي والليالي بصحبة الغلمة الذين تؤرقهم الآمال .

ثم مدحه بأخرى في نفس العام ، واستغرق في نفس الحلم ، وتساءل : لماذا يترك الرماح ظماي ، ولماذا يغضي عن مطالبه . وتحمس وقال(٧٨) :

اذا ما جررت الرمح لم يثنني اب
بليح ، ولا ام تصيح ورائي

وهذه حالة قد تعتري الاطفال ، ولا تخطر على بال الفرسان وهم في سوح الجلاد ، ولكن الرضي يريد بها التعبير عن التصميم الاكيد والعزم الماضي ،

(٧١) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٤٢٦/١ .

(٧٢) شرح ديوان الحماسة : التبريزي : ١٤٥/١ .
(٧٣) شرح ديوان الحماسة : المرزوقي : ٢٧٤/١ .
(٧٤) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٣٣٣/٢ ــ ٣٣٤ .
(٧٥) ديوان الرضي ، دار صادر : ٢٦٩/١ .
(٧٦) ديوان المتنبي ، شرح البرقوقي : ١٣٩/٢ . وانظر ديوان الرضي ، دار صادر : ٥٧٦/٢ .
(٧٧) الشريف الرضي ، احسان عباس : ص ١٨٧ .
(٧٨) ديوان الرضي ، دار صادر : ٩/١ .

وكاني به يريد ان يقول لنا : لا احد في الدنيا يردني اذا عزمت ومضيت .

ثم قال :

وشيعني قلب اذا ما امرته
اطاع بعزم لا يروغ وراء(٧٩)
ارى الناس يهوون الخلاص من الردى
وتكملة المخلوق طول عناء
ويستقبحون القتل والقتل راحة
واتعب ميت من يموت بداء
فلست ابن ام الخيل إن لم أعد بها
عوابس تابى الضيم مثل إبائي

وانا ارى ان اكثار الرضي من الحديث عن الموت على هذا النحو فيه تعبير عن التردد النفسي، وفيه الحيرة القاتلة بين ما يتمناه في الواقع ، وبين ما يتطلبه هذا الواقع من الرجال الذين يحسنون الصيال فعلا ، ويجيدون القتال فعلا ، لا الذين يحلمون ويفكرون ويصورون .

والرضي يلح عليه السؤال نفسه عن التردد عن القتال ، والاغضاء عن المطالب ، كما يلح عليه « التمني الثوري » منبثا في كثير من ابياته الحماسية كمثل قوله :

متى اراني ودرعي غير محقبة
اجر رمحي، وسيفي غير مقروب(٨٠)

الا انه لم يقترن عنده بالعمل المادي الجاد ، كما فعل الكثير من ثوار الشيعة في تاريخهم الطويل .

على ان هذا السؤال ، الذي يطرحه الرضي على نفسه باشكال مختلفة ، وفي مواقف متعددة ، يبدو انه سؤال ثائر حالم ، وان ثورته لا تعدو كونها ثورة عقل يصور ويفكر ، وثورة روح لطيف يثقله عبء كبير ، لا ثورة رجل قوي يقف دون آماله نوع من التثبيط القاهر ، ولذلك فهو لم يخرج عن حدود التصورات للثورة(٨١) ، التي هي عنده رد نفسي عنيف على ما حوله ، ومن حوله ، فهو تارة « نصل مغمد » ولا بد أن يظهر معروفه لان منكره قد طال ، وهو لابد ان يصدر بعد مورد ، مادام هناك من ينتظر صدره ، ولكنه ماذا يفعل ، والخفر عنده يميت الجراة ، ويقربه الى الذل ؟ افلا يحق لنا هنا ، ان نرى في هذا الخفر نوعا من الجبن ؟ لنستمع اليه يقول :

ما انا إلاّ النصل مغموداً ولو
جردني الروع لبان جوهري(٨٢)
لابد أن يظهر معروفي ، فقد
طال على مر الزمان منكري
لابد ان أصدر بعد موردي
فربّ قوم يرقبون صدري
لابد ان اشعر وجهي جراة
فطالما ذلل عنقي خفري

ويلح عليه السؤال نفسه ، في قصيدة مدح بها اباه وهناه بعيد الفطر سنة (٣٧٩ هـ) : لماذا يشنع؟ لماذا لا يثور ؟ اليس مهنده بيده ؟ اليس جده النبي المرسل(٨٣) ؟

مالي قنعت كأنّ ليس مهندي
بيدي ، ولا جدي النبي المرسلُ
فلآخذن من الزمان قلبة
حقي ، وامنع ما أشاء وابذل
ولادخلن على النساء خدورها
واليوم ليل بالعجاجة اليل

ويلاحظ انه في البيت الاخير يصطنع معنى حماسيا قديما ، ليعبر به عن معنى القوة والاغتصاب واجتياح حمى الاعداء عنوة .

ثم يعبر عن موقفه السياسي ، وعن ثورته على اوضاع عصره ، مفسرا جانبا من جوانب حماسته في قوله :

وعلى ان يطأ العراق واهلها
يوم اغر من الدماء محجل
يوم تزل به القلوب من الردى
جزعا ، واحرى أن تزل الارجل

والشريف الرضي ، وان كان في معرض المدح لابيه ، الا اننا يجب ان لا ننسى أنه في سنة (٣٧٩ هـ وان الخليفة القادر بالله ، يهرب الى البطيحة في هذه السنة ، وان علاقته بالرضي ليست على ما يرام .

(٧٩) في الديوان (ورائي) وارجح ما اثبتناه ، فلعله يقصد : و (راي) وقد قلبها وخففها فاصبحت : و (راء) ومثلها قوله :
فيجردني تجدني سيف عزم
يصمم غربه وزناد راء

(٨٠) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٦١/١ .

(٨١) نفس المصدر : ١٩٢/١ ، ٢٠٨ .

(٨٢) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٧٦/١ .

(٨٣) نفس المصدر : ١٥٦/٢ ، ١٦٠ .

كما أن صمصام الدولة يسمل في هذه السنة ايضا ، وبنو حمدان يعودون الى الموصل . . . هذه احداث لها شأن في حياة الشاعر ، ولها تأثير بالغ في نفسه ، فالقادر بالله غريمه اذا ما قيس بغيره من الخلفاء ، وبنو حمدان شيعته ، ومن العرب الذين كان لهم شأن في تصريف الامور وتوجيهها ؛ وقد كانوا مع غيرهم من القبائل العربية ، يضيقون على البويهيين ، وعلى الخلافة في بغداد ، وربما امتزجت هذه الاحداث وغيرها في نفس الشريف الرضي ، وربما انطلق عفويا بمثل هذه الحماسة التي تقدمت .

في هذا العام ايضا ، مدح والده ، وهنأه بعيد الأضحى ، وعارض لامية ابي الطيب المتنبي(٨٤) وتحمس قائلا(٨٥) :

ومن عجب غضي عن الشيب جازعا
وكري إذا لاقى الرعيل رعيل
ولي نفس يطغى إذا ما رددته
فيعرقني عرق المدى ويغول(٨٦)
وما نسع الأضلاع ريعان زفرة
يكاد لها قلب الجليد يزول
وما ذاك من وجد ، خلا أن همة
عنائي بها في الواجدين يطول

ثم عرّض بعدوه وعدو أبيه . وعبر عن نشوة النصر ، متحمسا ، واصفا موقف هذا العدو من أبيه ، ثم زواله(٨٧) :

وطائر ، وعاء الشر بين ضلوعه
وداء من الغل القديم دخيل
رماك وبين العين والعين حاجز
وذل وراء الغيب نبك وقيل
فما زلت تستوفي مراميه ، والقوى
تقطع . والاقبال عنه يميل
الى ان اطمعت الله ثم رميته
فلم تغض الا والرمي قتيل

وفعل مثل ذلك عام (٣٨٠ هـ) عندما ردت النقابة ، وامارة الحج ، والنظر في المظالم ، الى والده ، فقال قصيدة ابتهج بها ، ومزج الحماسة بالنشوة الغامرة(٨٨) ، وهكذا تؤثر أوضاع القرن الرابع الهجري في الرضي ، وتطبع شعره الحماسي بطابعها ، وتسمه بميسمها ، وهكذا يستغل مناسبات المدح ليعبر عن ثورته على قيم عصره ، وأبناء عصره ، ممن ناصبوه العداء ، او نافسوه على مطمح ، ولا يفوته ان يصور في مناسبات معينة بعض الاحداث التاريخية ، وان يقف منها موقفا جادا ، ينفعل فيه باحداثها . ومن الاحداث الكبرى التي سجلها الشريف الرضي ، وانفعل بها وتحمس ، واعطت مع غيرها قيمة تاريخية لشعره ، قصة مقتل باذ الكردي الخارجي .

فقد مدح الوزير ابا منصور بن صالح في قصيدة غير مؤرخة(٨٩) ولكنه لم ينس فيها هزيمة باذ الكردي الخارجي بالجزيرة والموصل ، حيث أتى على هذا الحدث التاريخي ، وصوره ، واصفا مقتل باذ وصورته مع أشياعه معلقين على الاعواد .

وهو يعطينا في هذا الجانب مثلا لوصفه الحربي ، وبكلمة أدق لحماسته الحربية ؛ فينفعل بالحدث ، ويندمج فيه ، متأثرا بنشوة النصر ، تسعفه ملكته الفنية ، معتمدا على ما يسمعه من الوقائع والاحداث ، وهو هنا يختلف عن المتنبي الذي تمرس بمثل هذه الاحداث . وخبر حلوها ومرها ، كما يختلف عنه في أن الاخير كانت له قصائد في الوصف الحربي قائمة بذاتها ، بينما كان الرضي يصور المعارك الحربية في تضاعيف قصائده .

يقول الرضي واصفا هزيمة باذ الكردي الخارجي(٩٠) :

ولما طغى باذ وأضرم ناره
على القدر ، أن القادرين ذئاب
بعثت له حتفا بغير طليعة
تخب به قب البطون عراب
نزائع يعجمن الشكيم وقد جرى
على كل فيفاء دم ولعاب
خواطر بالأيدي ، لواعب بالقنا
وللطعن في لباتهن لعاب

(٨٤) ديوان المتنبي – شرح البرقوقي : ٢١٧/٢ .
(٨٥) ديوان الرضي – دار صادر : ١٦١/٢ .
(٨٦) يعرقني : يأكل لحمي ، او يأخذ من لحمي كما تأخذ المدى ، اي السكاكين .
(٨٧) ديوان الرضي – دار صادر : ١٦٢/٢ .
(٨٨) ديوان الرضي – دار صادر : ٢١٠/١ .
(٨٩) ارجح ان يكون الرضي قد نظم هذه القصيدة سنة (٣٨٠ هـ) لان باذ الكردي استولى على الموصل سنة (٣٧٣ هـ) وهزمه الديلم فيها سنة (٣٧٤ هـ) ولكنه عاود القتال سنة (٣٧٧ هـ) ثم قتل سنة (٣٨٠هـ) ، فختمت حياته ، وفي القصيدة ارهاص بموته ، وصورة له ولأشياعه وهم معلقون على الاعواد : انظر : الكامل لابن الاثير ٧٠/٩ حوادث سنة (٣٨٠ هـ) .
(٩٠) ديوان الرضي – دار صادر : ٦٧/١ ، ٢٨٨/٢ .

ولا أرض الا وهي تحثو ترابهـا
عليه ، وترميـه رُبـاً وعقـاب
فولي ووليت الجيـاد طلابـه
وسالت مروج بالقنـا وشـعاب
تغامس في بحر الحديد وخلفـه
لماء المنايـا زخـرة وعبـاب

ولا يخفى ان علاقة الرضي بالخليفة الطائع لله ، كانت جيدة ، فقد كان يرى فيه البقية الباقية من الخلافة العباسية ، فكثيرا ما كانت آماله تنتعش عندما يمدحه ويهنئه بالاعياد ، ولذلك كانت حادثة القبض عليه سنة (٣٨١ هـ) كأنها الصاعقة نزلت على الرضي ، وقد زاد من هولها ، وعمق جرحها في نفسه ، انه كان حاضرا في المجلس عندما قبض على الطائع ، ثم كان اول الهاربين ، فسجل الموقف في قصيدة مؤلمة ، تحمس في آخرها ، ويبدو ان الحماسة والثورة فيها ، كانت ضد الاقارب من اولئك الذين تملحوا به ، بسبب هروبه ، وربما ذكروه بسوء للحادث نفسه .

ولا تبدو الحماسة في الابيات انها ثار للطائع او ثورة من اجله ، ولا يهمنا هذا في قليل او كثير بقدر ما يهمنا ان الرضي اثاره الموقف ، وسجل الحادثة التاريخية المشهورة ، وفسر لنا جانبا من دواعي شعره الحماسي .

قال الرضي(٩١) :

توقعوها فقد شبت بوارقهـا
بعارض كصريم الليل مدجون
اذا غـدا الأفق الغربي مختمراً
من الغبار ، فظنوا بي ، وظنوني
لتنظرني مشـيحاً في اوائلهـا
يغيب بي النقـع احيانا ويدنيني
لا تعرفوني إلاّ بالطعـان اذا
اضحى لثامي معصوباً بعرنيني
إقدام غضبان كفتـه ضغائنـه
فما يخلط مضروباً بمطعـون
فان اصب فمقـادير محجـزة
وان اصب فعلى الطير الميامين

ولا حاجة بنا الى استجلاء الموقف النفسي الذي كان يعانيه الرضي ازاء هذه الحادثة ، فالبيت ما قبل الأخير يصور بوضوح اي انسان مأزوم هذا الغاضب الذي تعتصره الاحقاد فيتخبط في ضربه ، ويخلط بين المضروب والمطعون .

وهكذا يستمر الشريف الرضي متحمسا خلال قصائد المدح ، متأثرا بالاحداث الخاصة والعامة ، منسجما مع الاطوار التي مر بها في حياته، في حال غمته ، وامله ، ويأسه .

ولو استقصينا هذه القصائد جميعا ، لرأينا الخط البياني لحماسته فيها ، يرتفع وينخفض ، تبعا للموقف .

ولقد حاولت ذلك ، فلاحظت ان الحماسة في قصائد المدح عند الرضي تكاد تختفي في الأعوام (٣٨٨ ـ ٣٩٨ هـ)(٩٢) وهذه الفترة من حياة الرضي هي فترة يأس وانطواء ، وخيبة في الآمال التي تغنى بها ،وتحمس من اجلها ،حيث كانت من اقوى العوامل في تفتيح قريحته وابداعه . فقد ترسبت في قاع نفسه ، وفي اخريات حياته خصوصا ، خيبة قاتلة ، ولكن روافد نسبه العريق ، ومنزلته الاجتماعية ، وفساد الاحوال ، الحت عليه ان ينكر هذه الخيبة بين حين وآخر ، فأنكرها فعلا ، وظل قنوطه ويأسه ، فيهما شيء من التحرك والتململ ، ولكنه يبدو لي انه كان مكابرا في ذلك ، يخادع نفسه ، ويخادع الناس .

واذا كان الشريف الرضي يتحمس في مدحه ، وينفذ من خلاله الى اغراضه السياسية ، وثوراته العاطفية ، مصورا تسخطه ، واحلامه الملحمية ، فانه يتحمس كذلك في قصائد الرثاء .

ولكنه كثيرا ما يبدو متجهم الاسارير ، يمتلكه شعور مأساوي حزين ، ويغلب عليه الندب والنواح .

وحماسته في قصائد رثائه اقل من حماسته في قصائد مدحه ، وليس ذلك بغريب ، فلعل فرق ما بين الموقفين ينسي الشاعر ثورته ، وبكلمة ادق ، فانه يجعله يمزج هذه الثورة بالتشيج ، ويصبغها بالندب والنواح .

والرضي يفعل ذلك كثيرا عندما يرثي جده الحسين ، فتتشخص في ذهنه المأساة التاريخية الدامية التي « صبغت ... ولا تزال تصبغ ادب الشيعة بالحزن العميق ، والرثاء التائح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة ، وامدته بمدد زاخر من المعاني والاخيلة والعواطف ، فغزرت مادته ،

(٩١) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٤٤٧/٢ .

(٩٢) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٥٤٩/١ ، ٥٧٤ ، ٥٩٩ ، ٤٢٠ و ١٣١/٢ ، ٣٤٦ ، ٤٩٢ .

واسـع مجال القول فيه ، وغدونا امام ادب تبعثه عاطفتان بارزتان ـ عاطفة الحزن، وعاطفة الغضب ـ تصدره الاولى حزينا باكيا ، وتبعثه الثانية قويا ثائرا(٩٣) .

وللرضي قصيدة رثاء في جده الحسين ، كتبها سنة (٣٧٧ هـ) في عاشوراء ، وقد استهلها بمقدمة حماسية ، وعبر فيها عن ايمانه بحريته ، وعدم اكتراثه بما يتهدده من خطوب فقال(٩٤) :

صاحت بذودي بغـداد فآنسني
تقلبي في ظهور الخيـل والعيـر
وكلما هجهجت بي عن منازلهـا
عارضتها بجنان غير مذعور
اطغى على قاطنيها غير مكترث
وافعل الفعل فيها غير مأمور
خطب يهددني بالبعد عن وطني
وما خلقت لغير السرج والكور

ونلاحظ ان الشريف الرضي يتخـذ من يوم عاشوراء منطلقا للتعبير عن موقف سياسي ، ويكشف عن طبيعة صلته بأبناء عصره ، وهو على عادته في استعراض آلام الكارثة ، يعرج على بني اميه ، مهددا ، متوعدا بيوم عظيم(٩٥) :

بني امية ما الاسياف نائمة
عن شاهر في اقاصي الارض موتور
والبارقات تلوى في مغامدها
والسابقات تمطى في المضامير
إني لأرقب يومـا لاخفـاء لـه
عريان يقلق منه كل مغرور
وللصوارم ما شاءت مضاربهـا
من الرقاب شراب غير منزور

ولكن اين هم الأمويون ؟ ومن المقصود اذا ؟

يبدو لي ان الشريف الرضي يوري ، ويعمم، ويرمز ، ويقصد كل من ينزع العلويين الخلافة ، سواء أكانوا بويهيين ام عباسيين .

وقد نجح الشريف الرضي في هذه القصيدة سياسيا ، كما نجح وابدع فنيا ، اذ انه عبر بأصالة، وكان رائعا في الحالتين .

---

(٩٣) عبدالحسيب طه حميده : (ادب الشيعة الى نهاية القرن الثاني الهجري) ص١٥٢ ، مطبعة السعادة .
(٩٤) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٨٧/١ .
(٩٥) نفس المصدر : ٩٢/١ .

اما توقعه المتكرر للثورة المدمرة ، والايام التي ستواتيه ، فيبدو انه ينبع أصلا ، لا من ثقة بنفسه المحاربة القوية ، لأنه لم يعرف عنه ذلك ؛ وانما ينبع مما وقر في نفسه من ايمان بالتوقع الشعبي الشيعي في عودة الامام المنتظر .

وللرضي قصيدة جيدة اخرى في رثاء جده الحسين ، كتبها في يوم عاشوراء ايضا سنة (٣٩١ هـ) وجرته حادثة كربلاء الى الحديث عن الخلافة ، والى حملة شعواء على بني امية ، ثم عرج بعدها مفتخرا بأمجاد آبائه ومناقبهم ، وختم القصيدة بشهقة غاضبة ثائرة وقال(٩٦) :

إنّ الخلافة اصبحت مزوية
عن شعبها ، ببياضها وسوادها
طمست منابرها علوج امية
تنزو ذئابهم على اعوادها
هي صفوة الله التي أوصى لها
وقضى اوامره إلى أمجادها
اخذت بأطراف الفخار ، فعاذر
ان يصبح الثقلان من حسادها
الزهد والاحلام في فتاكها
والفتك لولا الله في زهادها
عصب يقمط بالنجاد وليدها
ومهود صبيتها ظهور جيادها
تروي مناقب فضلها اعداؤها
ابدا وتسنده الى اضدادها
يا غيرة الله اغضبي لنبيه
وتزحزحي بالبيض عن اغمادها
من عصبة ضاعت دماء محمد
وبنيه بين يزيدها وزيادها

والرضي وان كان في ظاهر الامر يفتخر ويتمجد ، الا انه في الحقيقة يحرض على الثورة ، ويدعو اليها ، وفخره في هذه الابيات ليس تقليديا، ولا باهتا ، فهو حماسي صارخ ، يتفجر من اعماق ثائرة حزينة غاضبه ، وما الحماسة في جوهرها الا « لون فاقع من الوان الفخر » (٩٧)

اما في هذه « العُصب » التي يقمط وليدها بالنجاد ، وتكون مهود صبيتها ظهور الجياد ، فهو يبدو مبالغا ، ولكن مبالغته تصدر عن ايمان عميق ،

---

(٩٦) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٣٦٢/١ .
(٩٧) شعر الحرب في ادب العرب ، زكي المحاسني : ص٣٢٩.

ولذلك لم يخرج بها عن عمود الاجادة ، وقد تؤاخذه على هذه المبالغــة ، ولكننا لا نغير شيئا من راى الشريف الرضي ، فهو في معرض المصاب الكبير الذي يثير في نفسه كل نوازع الاعتداد والاعتزاز والفخر بمآثر اجداده ، كما يثير فيه كوامن الحزن والالم .

وقـد رثى الشريف الرضـي كثيرا مـن الشخصيات التي كان لها شان في عصره ، فالمّ بالحماسة في مواقف مختلفة ، ولكنه لم يبلغ فيها ما بلغه في رثاء جده الحسين ، فقد رثى والـدته (٣٨٥ هـ)(٩٨) وعبر عن صبره ، وتجلده ، وقوته ، وقوة اشياعه وقال :

ابدي التجلد للعـدو ، ولو درى
بتململي ، لقد اشتفى اعـدائي
ما كنت اذخـر في فداك رغيبـةً
لو كـان يرجـع ميـت بفـداء
لو كان يدفع ذا الحمام بقـوةٍ
لتكدسـت عصـب وراء لوائـي
بمدربين على القـراع تفيـأوا
ظل الرمـاح لكل يـوم لقـاء

ثم عبر عن ثورة حزنـه ، وتحرقه ، بسبب المصاب ، في نبرة يبدو فيها شديداً هائجاً وهو يقـول :

كـم آمر لي بالتصبر هـاج لي
داءً ، وقـدر أن ذاك دوائـي
آوى الى بـرد الظـلال كأننـي
لتحـرقي آوي الى الرمضــاء
واهـب من طيب المنام تفزعـا
فزع اللـديغ نبـا عن الاغفـاء

كمـا رثى علي بن الحسـين الزينبي نقيب العباسـيين (٣٨٤ هـ)(٩٩) والصـاحب بن عباد (٣٨٥ هـ)(١٠٠) ، وأبـاه (..٤هـ)(١٠١) وخالـه (٣٩١ هـ)(١٠٢) ، وكان في اكثرها محض رثاء ، يلم بالفاظ الحرب والثورة ولغتها وآلاتها ، ولكنه لا يرقى الى روح الحماسة والثورة الاصيلة .

ومن امثلة ذلك ، رثاؤه لتغلبة بنت سـيف الدولة (٢٩٩ هـ) في قصيدة مطلعها(١٠٣) .

تغــالب ثــم تغلبنــا الليــالي
وكـم يبقى الرمي على النبـال

وقد عارض فيها المتنبي ، واصطنع اساليبه ، والمّ بمطلع لاميته(١٠٤) :

نعــد المشـرفية والعـــوالي
وتقتلنـا المنـون بـلا قتـال

ورثى الشريف بعض رؤساء القبائل العربية التي لعبت دورا هاما في توجيه سياسة القرن الرابع الهجري ، وعبر عن جانب من حياته خطيره يفسر بعض شعره الحماسي ، أو يعين على تفسيره ، ومن ابرز هؤلاء العرب الذين رثاهم ، ابو طاهر ابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني ، الذي قتله أبو الذواد العقيلي سنة (٣٨٢ هـ) ، وكان صديق الرضـي ، ومن شيعته ، بل ممن كان يرى فيهم بعض احلامه في الطموح والسيادة ، قال الرضي(١٠٥) :

القي السـلاح ربيعـة بن نـزار
اودى الردى بقريعـك المغـوار
وترجلي عن كل اجرد ســـابح
ميل الرقاب نواكس الابصـــار
ودعي الاعنـة من اكفـك ، إنهـا
فقـدت مصرفها ليـوم مغـار

والشريف الرضي لا يذم هنا بني ربيعة ، ولا يهجوهم ، ولكنه يقصد الى اسـتثارة نخوتهم ، وتحريضهم للثار ، وهو يذكرنا بقريط بن انيف في استنهاض قومه واستثارة نخوتهم(١٠٦) .

على ان الرضي في هذه القصيدة ينطلق من احساس بوجدان جماعي حتى لكان القضية تمسه شخصيا ، وكان الثائبة نائبته بالذات حين يقول :

اليوم صرحت النوائب كيدهــا
فينا ، وبان تحـامل الاقـدار

ثم يخاطب تغلبا عن نجمها الذي افل ، وبطلها الذي افتقدته سوح القتال ، متصورا أن كل شيء من أمر الجهاد والمروءة والنجدة قد تعطل ، فيصرخ ، بل يشهق في استفهام ، فيه التحفز ، وفيه الحيرة ، وفيه المطالبة بالثار ايضــا ، بل فيـه الثورة نفسها(١٠٧) :

---

(٩٨) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٣٦/١ .
(٩٩) ديوان الرضي ـ دار صادر : ١٢٢/١ .
(١٠٠) نفس المصدر : ٢٠١/١ .
(١٠١) نفس المصدر : ٢٩٠/٢ .
(١٠٢) نفس المصدر : ١٤٦/١ .
(١٠٣) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٢١٢/٢ .
(١٠٤) ديوان المتنبي ـ شرح البرقوقي : ١٤٠/٣ .
(١٠٥) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٤٩٠/١ ، ٣٦٦/١ .
(١٠٦) جاء في شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي : انها لاحد شعراء بلعنبر : ٢٢/١ .
(١٠٧) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٤٩٢/١ .

اين القنا مركوزة تهفو بها
عذب البنود ، يطرن كل مطار
اين الجياد ملكن من طول السرى
يقذفن بالمهرات والأمهار
من معشر غلب الرجال ، جحاجح
غلبوا على الاقدار والاخطار
من كل اروع طاعن او ضارب
او واهب او خالع او قار
وكبوا رماحهم الى اغراضهم
اسمى العلى ، وجروا بغير عثار
واستنزلوا ارزاقهم لسيوفهم
فقضوا بغير مذلة وصغار

ثم رثى صديقه ابا حسان المقلد بن المسيب سنة (٣٩١ هـ) وقال(١٠٨) :

اعامر لا لليوم أنت ولا الغد
تقلدت ذل الدهر بعد المقلد(١٠٩)
واصبحت كالمخطوم من بعد عزة
متى قيد مشاء على الضيم يتقد
فان سار للاعداء غيرك فاربعي
وان قام للعلياء غيرك فاقعدي(١١٠)

وهو في هذه الابيات يحرض على الثورة ، ويستنهض بني عامر الى طلب الثأر ، ويفعل كما فعل في قصيدته السابقة في رثاء ابي طاهر ابن ناصر الدولة الحمداني .

ثم يعرض الشريف بالاعداء الذين قتلوا المقلد غيلة ويقول(١١١) :

فلا نعم الاعداء يوما بعيشة
ولا حضروا الا بالام مشهد
ولا صادفوا في الدهر منجى لخائف
ولا وجدوا في الارض ماوى لمطرد
ولا شربوا الا دما بعده ، ولا
تحابوا بغير الزاعبي المقصد

ثم يختتم القصيدة ، مصورا ان الردى غال اسرته ، محتارا باي يد يرمي الزمان ، وباي ساعد ، معبرا عن تجلد في طبعه :

وما كان صبري عنهم من جلادة
ابى وجد لي ، بل عادة من تجلدي

وما دمنا بصدد الكلام عن الاحداث الكبرى في حياة الشريف الرضي ، فانه من المناسب جدا ان نأتي على رثائه لشخصيتين كان لهما اثر أيما اثر في حياته ، ثم افتقدهما ، فكان لفقدهما وقع عميق في نفسه ، واعني بهاتين الشخصيتين ابا اسحق الصابيء ، وابا العوام .

اما الصابيء ، فقد كانت علاقته به علاقة اديب بأديب ، وصديق حميم ، بصديق حميم ، ثم تعدت ذلك الى ما هو ابعد اثرا في نفس الشريف الرضي .

والجدير بالملاحظة ان ابا اسحق ، كان يتوسم في الرضي ملامح الزعامة ، والرياسة ، ويثير في نفسه نوازع الطموح ، حتى انه كان من أقوى العوامل في ترسيخ نوازع الطموح نحو الخلافة في نفس الرضي .

ففي قصيدة بعث بها الى الصابيء جوابا على قصيدة كتبها الاخير اليه ، يقول الرضي متحمسا ، مفصحا عن ثورته التي سيعلنها من أجل اليوم المرتقب(١١٢)

وان تعودي ارقب اليوم او غدا
لعجز ، فما الابطاء بالنهضان
سأترك في سمع الزمان دويها
بقرعي ضراب صادق وطعان

وقد رثى الشريف الرضي ، ابا اسحق الصابيء في أكثر من قصيدة ، أشهرها داليته ، وقد تناول فيها الموضوع من جانب علاقته الشخصية بالصابيء الاديب الصديق ، الذي طالما اثار في نفسه الطماح نحو المجد ، وجعله يرمي ببصره نحو البعيد البعيد . وعلى طريقة الرضي في رثاء والدته ، خاطب الفقيد وهو ثائر حزين(١١٣) .

لو كنت تفدي لافتدتك فوارس
مطروا بعارض كل يوم طراد

---

(١٠٨) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٣٦٩/١ .
(١٠٩) يخطيء جامع الديوان عندما يتصور ان الشاعر يخاطب شخصا اسمه (عامر) فيحرك (تاء) « انت » ، وتقلدت ، واصبحت » وغيرك » (بالفتح) بينما المقصود نداء قبيلة بني عامر ، والتاء للتأنيث .
(١١٠) في الديوان « الغد » والصحيح ما اثبتناه على ضوء ما تقدم لكونه يخاطب القبيلة .
(١١١) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٣٧١/١ .
(١١٢) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٥٤/٢ . وانظر : ٢٨/٢ .
(١١٣) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٣٨١/١ .

وتفجـع عليه ، وصوره في صورة البطـل المحارب ، واضعا نفسـه في صميم التجربة ، متسائلا ، مكررا :

من للبلاغـة والفصاحة إن همى
ذلك الغمـام ، وعب ذاك الوادي

من للملوك يجـز في اعـدائهـا
بظبيٌ من القول البليـغ حـداد

من للممالك لا يـزال يلمهـا
بسـداد أمـرٍ ضائع وسـداد

من للجحـافل يستزل رماحها
ويـرد رعلتهـا بغـير جـلاد

ولرب قائل يقول : انّ الرضي لم يفعـل شيئا غير اصطناعية لغة الحرب ، تسعفه ملكته ، وقدرته الفنية في تصوير الصابيء الاديب البليغ ، في صورة البطل الذي يصول ببلاغته ، بظبى من القول الفصيح ، والرأي السديد ،يجزء به الاعداء ، ويلـم به الممالك ، ويرد الحجـافل بغير جلاد .

ومثل هذا يقول وارد ان نحـن طفونا على السطح ، وتعاملنا مع الالفاظ في ظاهرها ، اما اذا نفذنا الى الاعماق ، ووقفنا موقف الشاعر ، وتفحصنا روحه وتجربته ، فاننا لا يمكننا الا ان نلمحه مندمجا في الصورة التي اوردها في ابياته ، يصدر عن ذات منفعلة ثائرة ، ومشاعر هائجة متوترة .

الا انني لا انكر ان الرضي كان احيانا يصطنع صور البطولة بقدرة الشاعر الفنان ، ولكنه يبتعد عن الحماسة ، ويظل مجرد وصاف ، وقد فعل مثل ذلك في نفس هذه القصيدة ، فهو يصف بلاغة الصابيء والفاظه بانها تقدم اقدام الجيوش ، وتصمد صمود الابطال حين يقول(١١٤) :

يقدمن إقدام الجيوش ، وباطـل
أنْ ينهزمن هزائـم الاجنـاد

ومع أن هذه الصورة حربيـة في لغتهـا والفاظها ، الا أنها بعيدة كل البعد عن الحماسة .

واما رثاء الشريف الرضي لابي العوام ، فقد كان هو الآخر مدعاة لثورته ، وعاملا من عوامـل تحركه وتململه ، ونزوعه نزوعا بدويا ، فمن هو أبو العوام ؟ وما هي علاقته بالشريف الرضي ؟

---

(١١٤) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٣٨٣/١ ، ٥٨٠/٢ــ٥٨١ ، ٢١/١ .

في ديوان الرضي(١١٥) يبدو ان ابا العـوام، وعمرا ، وابن ليلى ، هو احـد زعماء البـدو ، وصديق الرضي ، وقيل انه كان دليلا له في طريق الحج ، وداعية له ، وقد قتله رجل من تميم .

وفي ديوان الرضي قصيدة يفصح فيها عن ان ابا العوام كان له شان ، وكان يطمح الى امر دونه الموت(١١٦) :

ارى إبل العوام تحدى على الطوى
وتاكل حوذان الطريق المناسم(١١٧)

وتطمى على الاغذاذ اشداق خيله
وتشرب من افواههن الشكائم(١١٨)

يحاول امراً يرمق الموت دونـه
لقد زل عنـه ما تـروم المـراوم

فابو العوام بدوي ثائر طامح ، كانت له علاقة بالرضي ، ربما وثقتها وعززتها رحلات الرضي ، ومروره بنجد ، ومصاحبته للادلاء من البدو في مواسم الحج التي كانت بالنسبة للرضي تجربـة واقعية ، تمرس خلالها بالاهوال والمغـامرات ، فاشبعت روحه بحب الحرية ، وجعلته يتذوق طعم الزعامة ، ولما كان الواقع لم يسعفه ، نفس عن هذا كله في شعره ، فجاء مصورا لجانب مهم من حياته ومفسراً لركن اساسي من اركان حماسته .

على ان كتب التاريخ لا تعطينا صورة واضحة لشخصية ابي العوام ولكن الشريف الرضي يكشف عنها ، ويرسمها في قصائده على النحو الـذي تقدم ، فقد مدحه في حياته ، ورثاه في مماته ، في قصائد فريدة جميلة ، ومن اجود مراثيه قصيدة مطلعها(١١٩) :

لعمرو الطير يوم ثوى ابن ليلى
لقـد عكفت عـلى لحمٍ كـريم

وهو مطلـع بدوي « هذلي » يذكرنا بابي خراش(١٢٠) .

وتكاد تكون القصيدة كلها جارية على نفس حماسي بدوي ممتزج بالاسى والالم على صاحبه

---

(١١٥) ديوان الرضي : ٥٦٧/١ ، ٥٨٩ و ٦٧/٢ ، ٢١٧ .
(١١٦) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٣٦٥/٢ .
(١١٧) الطوى : الجوع . الحوذان : نبات طيب الطعم في اصله صفرة . المناسم ، الواحد منسم : خف البعير .
(١١٨) الاغذاذ : من اغذ السير : اسرع .
(١١٩) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٢١٧/٢ .
(١٢٠) ديوان الهذليين : ص١٥١ . قسم ٢ ــ الدار القومية ــ القاهرة .

وعضده ، وامله في مطمحه البعيد ، هذا الصاحب الذي يقول عنه ، وعن النوائب التي اختطفته بطعنة تميميه غادرة :

اجزع إنْ حطمن حجـاز انفي
وهن يقصن أعناق القـروم(١٢١)
ومالي لا اراع وقـد رمتنـي
يد الجلي بقارعـة التميمي(١٢٢)

ثم يشهق متسائلا :

اجـدك أنْ تـرى بعـد ابن ليلى
طـدنا بـين رامـة والغميـم
ولا نقعا يثور على مغـير
ولا بيتـا يظـل عـلى مقيـم
ولا ثـبج الصبيـل مسـومات
مججن دمـا على علك الشكيم

وللرضي قصيدة أخرى جميلة في رثاء ابي العوام ، يصف فيها بطولته ، ويهدر على البحر الوافر ، ويقيمها على قافية الجيم المطلقة ، ويوغل في شعر البداوة مبنى ومعنى ويقول(١٢٣) :

ومظلمـةٍ من الغمـرات عطشـى
جعلت لهـا من القضب انبلاجـا
ومائلـةٍ اقمـت لهـا كعوبـا
وقد شغرت على القـوم اعوجاجا
وداهيـةٍ تشـول بالذنابـى
غـدوت لبـاب مطلعهـا رتاجـا
ومضلـةٍ كفيت ، وذات وهـى
شددت لها المراقي والعناجا(١٢٤)

ومنها ، وهي أكثر ايغالا في شعر البداوة ، وادل على احتماسه قوله :

برغمـي أن يـكن قنـا تميـم
عضين على الذنائب منـك حاجا
حميت منـابت الرمرام منهـم
واخليت الأناعم والنباجـا(١٢٥)

---

(١٢١) يقصن : يكسرن .
(١٢٢) يشير الى متمم بن نويره التميمي ، والقارعة التي اصيب بها هي مقتل أخيه مالك ، قتله خالد بن الوليد في حرب الردة .
(١٢٣) ديوان الرضي - دار صادر : ٢٢٧/١ .
(١٢٤) المراقي : الواحدة مرقوة : خشبة الدلو . العناج : حبلهـا .
(١٢٥) الرمرام : نبت اغبر . النباج : قرية بالبادية .

منعتهـم اللقـاح ، وملقحـاتٍ
يكاد الخوف يمنعهـا النتاجـا
فمـا لقحت لهـم الا اختلاسـا
ولا ولدت لهـم الا خداجـا(١٢٦)

وخير ميزة في هذه القصائد التي قالها الرضي في ابي العوام انه « جردها من اسلوبه التقليدي في الرثاء ، وجعلها نسيج وحدها حين لاءم بينها وبين الذي قيلت فيه ، واقامها على نسق بدوي خالص ، فالروح بدوية ، والطريقة بدوية كذلك ، وبعض المعاني التي يرددها فيها يدل على قوة صلة الشريف بشعر البداوة ، وبخاصة شعر الهذليين »(١٢٧) .

وقد رسخ هذه الروح في نفسه ، وفي شعره ، قراءته للمتنبي أولا ، وتأثره بـه ، في الشعـر : والوسائل ، والغايات : ثم تمرسه بامارة الحج في اعوام طويلة من عمره ، ولقد وثقها أكثر من هذا كله ، وبشكل عنيف ، طموحه للخلافة ، وشعوره بأن البداوة صار لها اليـد الكبرى في توجيـه السياسة ، ثم نفوره من بغداد ، وضيقه بالحياة فيها ، كل ذلك زاد لصوقه بالبداوة ، لانه وجـد فيها بشكل عفوي ، المنبع الاصيل ، والمرجـع الوحيد ، لشعوره العربي ، ولراحة نفسـه ، ورضا قلبه وضميره ، ونحن لا ننسى في هذا المقام ، ثقافته الخاصة ، وبيئته الخاصة ، وعلاقته بالخط النقدي ، وبالنزعة التي مجدت روح البـداوة ، واتجهت نحوها في الشكل ، فلقد كان لهذا ايضا اثر كبير في توجيه شعره ، وفي طبعه بطابع البداوة(١٢٨) .

وما دامت الصلة وثيقة بين طموح الشريف الرضي ، وبين نزوعه البدوي العربي ، وما دام هذا الطموح بمثابة العامل الاكبر في توجيه شعره ، وفي تحركه ، واندفاعه ، وتحديه ، وتمرده ، على واقع عصره ، فجدير بالباحث أن ينظر مليا في هـذا الطموح ، وان يقف عنده ، فهو دون أدنى شـك ، يلقي ضوء كاشفا على ثورة الرضي ، ويفسر الجانب الاكبر من حماسته .

ولو استقصينا شعر الشريف الرضي من بدئه حتى نهايته ، لرأينا ان روح الطموح والثورة تكاد تلازمه ، وان الفخر الحماسي بملكاته ، وقدراته وامجاده ، وشعوره بالانفة ، والكبرياء ، يكاد يطغى

---

(١٢٦) الخداج : القاء الناقة ولدها قبل تمامه .
(١٢٧) الشريف الرضي ، احسان عباس : ص ٢١٧ . وانظر ديوان الهذليين : ق١ : ص ٨٢ . ق٢ : ص ٩٩ . ق٢ : ص ١٣٠ .
(١٢٨) الشريف الرضي ، احسان عباس : ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

على شعره في هذا الجانب ، حتى يبدو لنا وكان هذا الشعور ولد معه ، لا يتصنعه ، ولا يتكلفه . على ان طموحه في بواكير حياته ، كان غامضا ، غير محدد ، فهو تارة المجد(١٢٩) :

المجد يعلم ان المجد من اربي
ولو تماديت في غي وفي لعب
إني لمن معشر ، ان جمعوا لعلى
تفرقوا عن نبي ، او وصي نبي
إذا هممت ففتش عن شبا هممي
تجده في مهجات الأنجم الشهب
وإن عزمت فعزمي يستحيل قذى
تدمى مسالكه في اعين النوب

يقول جامع ديوانه : انه قالها وسنه فوق العشر بقليل .

واذا كانت « هموم المجد » شغلت الرضي في هذه السن المبكرة ، فان قضية الزعامة داعبت احلامه ، ورسخت في نفسه ، وهو لم يتجاوز العشرين ، فاذا به يحلم بالسيادة ، « ورعي الناس عن رعي القروم » واذا به يلتمس العلى بالعرب او بغير العرب(١٣٠) :

وعن قرب سيشغلني زماني
برعي الناس عن رعي القروم
ومالي من لقاء الموت بد
فمالي لا اشد له حزيمي
سالتمس العلى إما بعرب
يروون اللهاذم أو بروم

وتارة اخرى يكون طموح الرضي الى العلياء(١٣١):

ما انا للعلياء إن لم يكن
من ولدي ما كان من والدي
ولا مشت بي الخيل إن لم اطأ
سرير هذا الاغلب الماجد

ويلاحظ في البيت الاخير انه يعرّض بالخليفة . ومن هذه النقطة يبدو طماحه اكثر وضوحا ، وهو يرمي الى غاية بعيدة ، دونها الحمام(١٣٢) :

سامضي للتي لا عيب فيها
وان لم استفد إلاّ عناء
واطلب غاية إنّ طوحت بي
اصابت بي الحمام او العلاء

فقد تكون الخلافة ، او النقابة ، وهي على اية حال ، غاية سامية رفيعة ، بعيدة المنال ، او هي الخلافة نفسها ، وقد افصح الشريف عن هذا عندما تقلد النقابة قائلا(١٣٣) :

قلق العدو وقد حظيت برتبة
تعلو على النظراء والامثال
لو كنت اقنع بالنقابة وحدها
لغضضت دون بلوغها آمالي
لكن لي نفسا تتوق الى التي
ما بعد اعلاها مقام عال

والشريف الرضي يتحمس لهذا كله ، وتشتد حماسته ، وتلتهب ، وقد يفتخر ، مصورا نفسه بطلا يخوض الغمرات ، ويصارع الاهوال ، مستغرقا في حلم اليقظة بكل كيانه ، حتى اذا عاد الى نفسه ، ندّ عنه استفهام ، فيه نفاذ الصبر وفيه ثورة النفس(١٣٤) :

الى كم ذا التردد في الاماني
ولم يلوى بناظري السراب
ولا نقع يثار ولا قتام
ولا طعن يشب ولا ضراب
ولا خيل معقدة النواصي
يموج على شكائمها اللعاب

وحتى اذا استنفد الحلم الذي يعيشه ، ووجد ان المطامح لا تتحقق بالآمال ولا بالاقوال ، هتف من جديد :

ساخطبها بحدّ السيف فعلا
إذا لم يغن قول او خطاب
وآخذها وان رغمت انوف
مغالبة ، وان ذلت رقاب

والشريف الرضي ، الطامح ، المتحمس في طلب العلى والمجد ، والغايات العظام ، في شكل نقابة ، او خلافة ، او امارة حج ، يكون اقوى حماسة واشد اذا مس طماحه بسوء ، وهددت آماله بالخطر .

---

(١٢٩) ديوان الرضي ــ دار صادر : ١/١١٢ ، ٢/١٥١ .
(١٣٠) ديوان الرضي : ٢/١١) .
(١٣١) ديوان الرضي ــ دار صادر : ١/٣٤٨ .
(١٣٢) نفس المصدر : ١/١٩ .
(١٣٣) ديوان الرضي ــ دار صادر : ٢/١٨٢ .
(١٣٤) نفس المصدر : ١/١٢٦ ــ ١٢٧ .

فعندما يشعر بانه سيصرف عن النقابة ، يتضخم عنده الشعور بالعظمة ، فيثور ويصرخ (١٣٥)

فلئن صرفت ، فلست عن شرف العلى
ومقاعد العظماء ، بالمصروف
ولئن بقيت لكم ، فاني واحد
ابداً يقوم منكم بألوف

ثم تزداد عنده هذه الثورة ، عندما يصرف عن النقابة فعلا ، فيلح عليه شعور عنيف من مشاعر الكبرياء والأنفة ، والاباء ، ويهتف(١٣٦) :

ولي أنف كأنف الليث ، يأبى
شميمي للمذلة واستياقي
إذا عدّ المناقب جاء بيتي
يجر ذيول أحساب ٍ ضواف

ويخاطب الخليفة ، ويتجرأ عليه ، ويتحداه :

لئن أعلى بناءكم اصطناعي
فسوف يثل عرشكم انحرافي

وهذا الشعور العنيف ، الطافح بمعاني العظمة ، والتفوق ، يبدو للمتتبع ، وكأنه أشبه بمرض ، ظل يلازم الشريف الرضي ، فتتفجر به عواطفه ، ولا يستطيع منه فكاكا ، ولذلك رأيناه يعبر عنه ، عندما يقف أمام الكبار(١٣٧) الذين شعر من أعماقه ، انهم هم السبب في اغتيال حلمه الذهبي ، وهم الذين أقاموا السد المنيع بينه وبين مطامحه . ويبدو هذا واضحا في فخره الحماسي الذي هو في حقيقته تمجيد لمشاعر الرجولة والبطولة في شخص الشاعر ، وقد أتينا على الكثير منه في هذا الفصل ، فهو قوام حماسته ، وهو مبثوث في أغلب قصائده ، شأن المتنبي في ذلك ، بل أكثر منه .

ونحن ـ وان كنا لا ننكر أن له فخرا تقليديا(١٣٨) جارى فيه من تقدمه ، ولم يصبغه بتلاوين مشاعره وانفعالاته ـ الا أننا نجد أن فخره الحماسي الأصيل الفاقع ؛ كان يطغى على شعره . فقد وجد لمادة فخره معينا لا ينضب ، وانطلق على لسانه ، ملونا باطوار حياته ، وبمزاجه النفسي ، وبحياة البؤس والحرمان ، والهناء والسعادة ، والغضب والثورة ، والشعور بالأمل الزاهي والأمل الخائب ، ثم الزهو الذي يصل الى حد الشعور بالعظمة الذاتية ؛ كما أسلفت ، وبالعظمة التاريخية(١٣٩) ، وأعني بها رصيده العالي في النسب ، وأمجاده الخالدة عبر التاريخ العربي الطويل ، ولهذا كله ، جاء الفخر على لسانه قويا ، مؤثرا ، تكاد نبرة الحماس لا تفارقه ، وصور الرجولة ، والعزة ، والاباء ، لا تغيب عنه ، فكان معين حماسته ، ومنبعها الأصيل ، وقد رأينا ذلك في المقدمة الحماسية في شعره ، وفي قصائده الحماسية المتكاملة ، كما رأيناه مبثوثا في ثنايا قصيده ، طاغيا على أكثر أغراض شعره .

(١٣٥) ديوان الرضي ـ دار صادر : ١٤/٢ .
(١٣٦) نفس المصدر : ١٦/٢ ، ٤٤٢/٢ وما بعدها .
(١٣٧) ديوان الرضي ـ دار صادر : ٤٢/٢ .
(١٣٨) نفس المصدر : ٢٥١/١ ، ٤٤٩/١ ، ٢٩٣/١ .
(١٣٩) ديوان الرضي ـ دار صادر : ١٩/١ ، ١١٥ ، ١٣٤ ، ٥٠٠/١ ـ ٥٠٤ .